

حمدي أبو جليل

قيام وانصيار
الصيد تشين



ميريت

حمدي أبو جليل ■ قيام وانصيار الصيد تشين ■ ميريت

تصميم الغلاف: أحمد القليوب

دار ميريت
2018
20
سنة
في حب
الكتاب
والحريّة



عشر سنوات قضاها حمدي أبو جليل يُقَلِّب هذه
الرواية، عشر سنوات حتى انهارت القصة نفسها
وسقط الزعيم، وأخيراً جاءت القصة، وأخيراً
جاءت النبرة، والد «صاد شين»: الجنسية التي
اخترعها الزعيم وانتهت، بل قل ضاعت بمقتله،
و«الصيد»، وما أدراك ما الصيد: إنها ملحمة
الهاموش المشرقي على المستنقع الغربي.

ISBN 978-977-051-020-5



9 789773 518295 >

ميريت
تصميم

قيام وانهيال الصاء شين

رواية

حمدي أبو جليل

إلى صديقني سليمان الفهد الكاتب والمؤرخ الكويتي الكبير أكثر الناس إيماناً بهذه
الرواية وحثاً على كتابتها

اتضح أن الزعيم نفسه صاء شين

أسامة أنهى روايته "كلبي الهرم كلبي الحبيب" بذيل، كان أنهاها ثم تذكر فصلاً سماه "بمثابة
ذيل" وألحقه بها، وأنا سأبدأ روايتي بحقيقة لا أدري إن كانت منها أو براها، وملخصها أن الزعيم
الذي اخترع الصاء شين أصلاً صاء شين.

طبعاً الزعيم كأبي زعيم مختلف على تاريخ ومكان ولادته، وهناك رواية تقول إن الزعيم أصلاً يهودي، وأمه يهودية من تل أبيب، وهناك رواية تذهب إلى أن الزعيم أصلاً فرنسي، أبوه طيار سقط من سماوات الحرب العالمية الثانية على خيمة شي عربي ليبيين هاملين في الصحراء وتزوج ابنتهم، وأنجبت له الزعيم، ولكن كلتا الروايتين تنطويان على أبعاد مذهبية تبرر الشك في كونهما من دس أعداء الزعيم التاريخيين. الأولى أقرب إلى الأعداء الإسلاميين الذين كانوا يكفرون الزعيم والثانية أقرب إلى الأعداء اليساريين الذين كانوا يخونونه.. وبمناسبة السماء التي سقط منها والد الزعيم الفرنسي (المدعى طبعاً) فإن السماء أساسية في مسيرة الزعيم وديدهن اليومي، أولاً هو لا يحرق إلا في السماء، خلقة كده، في رقبة حنية ناصبة وجهه مباشرة على وجه السماء، والمطرب غنى فيه: "ناصر راسا من باديا ما يركعبا غير انصلى، فارس ويعز ام حويا والخيل ومقعد بو خلا".

ثانياً لما ضربت الطائرات الأمريكية منزل الزعيم وهو فيه وأنقذ بشبه معجزة شاع أو أشيع بين الإخوة الليبيين أنها معجزة إلهية فعلاً، وأن يداً ربانية انبثقت من السماء لتحميه.

ثالثاً والأهم مخاطبة الزعيم جهاراً وعلى الملأ عنان السماء فيما يفعل في شعبه الذي ابتلي به وبتعنته التاريخي الفظيع الذي تكسرت على صخرته الصلبة كل نظريات الزعيم المدونه في كتابه الاخضر عن الحكم الرشيد والاشتراكية والمساواة، ومرات كان يترك السماء ويخطب فيهم مباشرة: "والله نا احترت فيكم انتم تستاهلون الاستعمار يستعمركم".

لكن دعك من روايتي مولد الزعيم المدسوستين.. الزعيم ولد في الفيوم يا زعيم، أسرة شنتها الطليان ضمن من شنت إلى مصر، ويقال ليس الطليان كمحتلين وإنما محاربين بالفتح في الحرب العالمية الثانية، ويقال أقدم، وإن أسرته من عرب المرابطين القدامى في مصر، وولد ببيت أخواله بنجع البراعصة جنوب الفيوم، وعادت به أمه طفلاً إلى سرت ومنها انتقل إلى سبها والشرارة الأولى وثورة الفاتح العظيم.

ولكن لا تظن أن الزعيم اخترع الصاد شين لأنه صاد شين، لأن الزعيم اخترع الصاد شين لأنه مستقل بشعبه؛ يراه أقل من طموحاته ونظريته العالمية الثالثة، وكان يرى في مصر الأنسب لهذه الزعامة، تحديداً مصر، الزعيم هو أكثر واحد آمن بأن مصر أم الدنيا فعلاً، وكان مستقل عدد الليبيين، "شنتون مليون في مساحة اتنين مليون، ويا ريتهم مدربين أو متعلمين أو حتى مستعدين للشغل!".

لكن المؤكد أن الزعيم كان يثق في الصاد شين أكثر من الليبيين، وما اختارهم في مهامه الخاصة في ليبيا وخارجها إلا ثقة في حسن تنفيذهم، وهم الذين حرروا له قرية أوزو ورفعوا عليها العلم الليبي لأول وآخر مرة في التاريخ.

واغش إفريقيا

سافرت لنفس الحلم، نفس النقلة، الحقيقة ليس حلمًا ولا نقلة، بل نكبة - قرشين لزوم الجواز "عشان ميقولوش ولد بوحامد بار، الولية معرفتش تربى عويلتنا، صدق اللي قال ولية" والشطر الأخير من الجملة أو المعايير يضيفه عمى ويركز عليه.. ورغم أن عمى شخصياً راكبا ولية إلا أن جملته كانت كحد السيف على أمي، أمي هي الشخص الوحيد الذي رأيته يتشكك من الكلام، ينتفض ويتألم ويئن أنيئاً ويبيكي، وليس كلام عمي فقط، لكن كلام عمي وأعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي وكل الناس، كلمة ترفعها لعنان السماء وكلمة تقذف بها إلى قاع الأرض، وعلى هذا الوقع اتهرينا، اتهرينا اتهرينا اتهرينا، وأنا أغنيها والله لأتينا اتهرينا اتهرينا، مفيش واحد أو واحدة من أقاربها ومعارفها إلا وزغدها أو زغدته بكلمة.. لكن هذا موضوع آخر. وانا كنت مطيع، وبين ما تدبني اندب، وما السفر إلى ليبيا إلا دبة من دباتها ولكن هذا موضوع ثاني أيضاً.

المهم الصيد ذهب لنفس النقلة لكن في أوروبا حيث النقل الحقيقي، وأنا صممت عليها في سبها، ويا لها من تصميمية من التصميمات التي ضيعت حياتي، لا أعرف إن كانت تصميمية واللا غباء مستحكماً واللا حماقة منقطعة النظير: اشتغلت ف مطعم وف ورشة وأنشأت مصنعاً للبلك وفشلوا جميعاً.

كنت طالع من الجيش في التسعينات، السنة التي وقعت فيها طيارة ياسر عرفات في صحراء سبها، كنت بالقرب منها في سبها نفسها، وأيامها تخبط الجيش الليبي الشقيق وتاه في صحراء الجنوب، وفشل تماماً في تحديد موقع عرفات وطائرتة في الصحراء على مدى يومين، حتى أشارت قطعة من البحرية الأمريكية في البحر المتوسط إلى موقعه في الصحراء، لكن الزعيم زار ياسر عرفات بعد العثور عليه ونقله إلى مستشفى سبها وقال له: "يقولون إن الأمريكان هم اللي دلونا على مكانك ف الجبل!! نحنا جيشنا الباسل هو اللي جابك".

أمي كانت تقول لي: "انت مش ماشي على قدك"، وكنت باقول لها بغيظ "أنا لو مشيت على قدي تماماً هنام، هاغطس تقريباً، مش هاتحرك أساساً"، وكانت بتترد بامتعاظ وانفة مضمرة ليش؟ إنت من عيت بو جليل وكل الناس عارفة هك!! "وعلامتين التعجب من عندها"، ومكنتش بقدر أقولها طبعاً ان عيت بوجليل بتوعها آخرهم الكوبري اللي في أول العزبة. ومرات أقول انه ابويا، كان غفير نظامي، وفي العرب عادي تبقى غفير، وقرابيننا أساساً معظمهم غفر، وكل عمدنا بدون استثناء شغلوا عيالهم الكبار غفر، لكن ابويا الله يرحمه كان عامل نفسه طيار، ويا عيني مكسوف من الحكاية دي، وكان بيتكسف يشيل بندقية الغفر وبيأجر واحد يشيلها له لما يتحتم عليه انه يشيلها أو يسلمها لأي مسؤل، ولكنه لم يترك الغفرة، دخلها وهو على مشارف الخمسين واستسلم، وكانت أمنية حياته "يقعد وحدا في أوضة عتمة" .. أنا عن نفسي أتوقع أن تكون القبر أو شبه القبر، ولي صديق كلما أحكي له هذه الحكاية يقول إنه الاكتتاب، أبوك كان مصاب بالاكنتاب ويضحك "مش عارف ليه حتى بدأت اتضايق م الحكاية دي".

درست طبعاً حوالي ستاشر سنة ولكني لم أتعلم أي حاجة. وأخذت عن أمي فلاحه الأرض، ورغم أنها العمل الوحيد الذي أتقنه وأحبه إلا أنني أيضاً فشلت فيه، وفشلاً مدوياً للأسف، وهي قصة لوحدها ناوي أسميها "الحماقات الزراعية في الأرض العجفاء" أرض ردية كما قال الفلاح الذي باع لي النخل اللي زرعتة فيها بمنتهى الاحتقار، أولاً مالحة جداً، وترفع الملح تجد جلموداً من

الصخر راسحاً وممتداً حتى آخر الأرض، ولكنني أصريت على زراعتها بغباء منقطع النظير.. دعك من التبوير، الحقيقة إن المشكلة ليست في الدراسة ولا التعليم ولا في الإخلاص نفسه وإنما في الحماس الأهوج والانكباب على موضوعات ومشاريع ومهن أول مرة في حياتي أسمع عنها... ولكن أحياناً أحس أن الفشل، في المطلق يعني، وبغض النظر عن مأساتي الشخصية، يرجع أساساً إلى خيارات الميخ، خيارات الفشل، "ختم الفقر" كما قال مستجاب أستاذي الأول واللي خلاه هو شخصياً ينغمس "في الطبخ الأحمر"، عارف الطبخ الأحمر يعني إيه؟، - يعني البطاطس بالطماطم اللي كانت حد أمل الغالبية العظمى من الشعب العظيم، ختم الفقر اللي يخلي الواحد يضبط في الوحل، نعم والله الوحل: "وما حياة الواحد إلا تضبيش في الوحل".

هيموت على المناب الكبير لكن لا يمد يده إلا للمناب الصغير، هيموت على المقعد الأول لكن يتوجه للمقعد الأخير، السهل، المضمون تماماً أنه في اليد دون أي مناكفة أو منافسة أو حتى وجود لأحد. في المدرسة كان العيال يتعاركوا على التختة الأولى والواحد ماشي مكسوف وقلقان شوية للمقعد الأخير، وفي القاهرة كان سهل يشتغل في بيع الهدوم في العتبة مثلاً، الصحافة نفسها كانت متاحة، ولكنه لم يتوجه إلا للفاعل، هل هو الحق الذي لا مرء فيه، أم الغباء الذي لا مرء فيه، أم القوة الغاشمة؟

قعدت السنة في سبها، أقصى الجنوب الغربي، وهي العاصمة الثورية المقدسة للزعيم الثائر ونظامه الأثور، وفيها عاش ودرس وبدأ الشرارة الأولى لثورة الفاتح التي سلمته ليبيا اثنين وأربعين سنة، وأسس فيها أول مؤتمر شعبي عام وأطلق منها نظريته العالمية الثالثة في تحرير الإنسان. والحقيقة انه حاول أن يجعل منها مدينة أوروبية بحدائق متسعة ومتنوعة لكن السبهاويين، السكان الأصليين، التبو والطوارق فهموا او لم يجدو أنفع من فهم ان الحدائق ماهي إلا مراعي حكومية مسورة، وتقاسموها بالأغنام والإبل، وعندما ضجت السلطات من مواشيهم تقاسموا الحدائق في الحش، كل واحد يحش من منطقة معينة، وأنا كان من نزهاتي النادرة في سبها مصاحبة صديقي محمد الطارقي وهو بيحش في العصاري لأغنامه من حديقة المديرية العامة للثقافة والفنون في سبها.

وبالمناسبة، ولا أعرف مبرراً لذلك: سكان سبها الأصليين من الطوارق والتبو هم شخوص أغلب روايات الكاتب الليبي الشهير إبراهيم الكوني، ولكنه، ربما لسفره الطويل، لم يرى واقعهم ولا حتى تاريخهم وإنما أسطورتهم المحلقة في سماوات الأبلق، لم ير جملهم المارق في حديقة قصر الثقافة ولكن جملهم الأبلق الذي يكاد يتطلع في السماء ويناجيها من فرط أسطوريته.

والسلطة في سبها في أقارب الزعيم، دعك من الحكومة ومجلس الوزراء والمسؤولين وحتى الجيش والشرطة فمعظمهم مرتزقة، السلطة في الشارع لأقارب الزعيم، وكون البني آدم من أقاربه كفيل بفتح كل الأبواب وكسر كل الحواجز في سبها وليبيا عموماً، وأقاربه كانوا درجات بحكم قربهم منه، وأقلهم على الإطلاق أقاربه العائدون من تونس وتشاد والنيجر، وأقلهم تماماً العائدون من مصر، وهم حكام سبها.

وقبل ثورة الفاتح كانوا متوسطين قبلياً، وفي مصر "كتار لكن رقاد ربح"، وفي ناحيتنا دانيال أطسا الفيوم، كان هناك ثلاث أربع بيوت من قبيلة الزعيم، وبعضهم مرتاح وتمكن في الوطن كالحاج غباشي، وكان يقال إنه ابن عم أو حتى عم الزعيم مباشرة، وكان رجلاً طويلاً أسود مهيباً يملك قطعاً من الأغنام والإبل ومساحة من الأرض بنى فيها جامعاً وأطلق عليه اسمه، وأكد احتمال قرابته للزعيم أن أولاده الخمسة كانوا يذهبون إلى ليبيا ويعودون منها في عز الصدام المسلح بين

الزعيم والزعيم المصري في السبعينات، وجميعهم حصل على الصاد شين ثم الجنسية الليبية. وفي سبها كان أقارب الزعيم في معية ومعونة ورعاية عائلة سيف النصر حكام سبها وسادتها الأقدمين، وبالنسبة للزعيم كانت رعاية رعاية: تمثلت في تكفل تعليمه وإنقاذه من مصير الراعي الفقير الذي كان سائراً إليه أو فيه شخصياً في صحارى سرت، وبعد الثورة انقلب الموضوع، انقض أقارب الزعيم، كلهم، أصلاء ومجنسون على البلد باعتبارها بتاعتهم، "حاجة خاصتهم يعني"، الأصلاء حكامها والعائدون لصوصها، وصادروا كل ممتلكات سادتهم من عائلة سيف النصر وحبسوهم ثم نفوهم إلى مصر بكامل أسرهم.

ولما سافرت كانت سبها مضطربة، قلقة وتشغى بالناس، سكانها الأصليين الطوارق والأفارقة من شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، وأفارقة من كل القارة، لكن الهيمنة فيها للعرب، ليس كل العرب؛ قبيلة الزعيم فقط، قبيلة الزعيم حكمت ليبيا كلها، وسبها كانت بيتهم وموطنهم. وسبها المحطة الأولى في رحلة الشباب الأفريقي الهارب للعالم الأوروبي، يأتونها سيراً على الأقدام من صحارى النيجر حتى أدغال غانا، ودائماً هم صيد سهل وأحياناً شرس وقاتل لفتوات سبها وشبابها الطائش. وأقارب الزعيم، أقصد المنتفذين منهم، في سبها أغلبهم ضباط شرطة وجيش، والكثير من شبابهم مجرمين، ليسوا مجرمين بالظبط بلطجية ولا بلطجية، فتوات يسرقون ويثبتون الناس خصوصاً الأفارقة والمصريين أمام عين الشرطة اللي غالبيتها أفارقة يطيعونهم ويخافون منهم، "إش بيك يا ممسخ هضا نا قذاف الدم".

وللأسف المصريون كانوا الأكثر تثبيتاً في سبها حتى عن الأفارقة، المثبت، البلطجي عموماً في سبها وفي ليبيا كلها يعمل ألف حساب للسوداني والتونسي ويتربع من الجزائري لكن طمعان في المصري.. في المشاحنات الوطنية مع عويدات والمغاربة، كنت أقول لهم بمنتهى الحدة والغيظ "دا التحضر"، الخوف دليل التحضر، الفرق بين الإنسان المتحضر القديم جداً والبدو البدائيين والهمج الطارئ جداً هو الخوف"، "ابن المدينة لما ينزل الأحراش والمستنقعات لازم يخاف ويتربع م الهمج"، وأنظر في عيونهم ملياً على اعتبار إني أفحمتهم، ولكنها للأسف ظاهرة وليست في سبها فقط، في كل البلاد العربية للأسف، سبها فقط قاع البكابورت، المصريون في كل البلاد العربية هكذا، "سيبك من النخبة بتاع الحضارة والتاريخ والمدرسين اللي علّموا الشعوب العربية"، أنا أكلمك عن الشعوب العربية نفسها.

وسبها واغش الشعوب، واغش أفريقيًا: أفريقيًا عرباً وأفريقيًا أفارقة وأفريقيًا مخلطين، الدرك الأسفل من شعوب هي في الدرك الأسفل أساساً، حتى حكامها أنفسهم في الدرك الأسفل، قرايب الزعيم القائد لكن ليس من النخبة المستقرة حواليه في سرت، وأغلبهم "بزابيز عرب جيين من مصر وتونس وتشاد والنيجر ودايرين ارواحهم ليبين"، وهم صميم الشعب اللي صنعه الزعيم بنفسه ولنفسه وأل إلى نفسه.

وحسب فلسفة المقعد الأخير اجتزت ليبيا كلها واستقرت في سبها، وسبت سبها كلها وقعدت وسط أخطر مجرميها، أبو الهلب المحكوم عليه بالإعدام في مصر، جرجارش الهارب من عملية أوغندا، خويطر خاطف زوجة الطبيب اليوغسلافي وأبو عبد الله وما أدرك بأبي عبد الله، وكل هؤلاء النجوم كانوا أصحابي وزملائي في الطعام والعمل، كنت الروح البريئة الساذجة وسط منسر من المجرمين، أحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها وسط ماخور أبو عبد الله، وكان ممكن أروح في ستين داهية في أي لحظة، لكنني لم أنتبه لخطورتهم ومجازفة العيش بينهم إلا لما رجعت إلى مصر. وهي خصلة متأصلة في للأسف، دائماً أنا الروح الساذجة في المحفل اللئيم، دائماً لا أرى

خوازيقي إلا بعد أن تدك فيا تماماً، أحياناً أعزي نفسي بالروائي، الذي لا بد أن يكون حطاً بطاً وطالع نخل وقصاص أثر كما قال صديقي الشاعر الدناصري، ولا بد أن يتجرع الموضوع كاملاً، ولكني أنا نفسي بطيء الفهم، أعترف لنفسي أولاً حتى أعفيها من هذا الصداغ، والأمر من البطء حسن النية، ودائماً لا أنتبه للخازوق إلا بعد أن أخذه كاملاً.

وسبها موطن الصاد شين، وهي المكان الوحيد في ليبيا الذي يتحركون فيهم باعتبارهم مواطنين ليبياين، وإن كانوا لا يعدمون شيخاً ليبيا سليطاً من هنا أو هناك يذكرهم بأصلهم "منو هو، صاد شين ممصخ، داير روحا ليبيا يالك؟!".

وأنا تركت سبها كلها وأقمت وسط الصاد شين ومجرميهم، في الحي الصناعي جنوب سبها في طريق المطار، وشاركتهم في كل شىء.

والحي الصناعي كان عبارة عن ورش في قطع مربعة متراسة بانتظام في مباني قصيرة حول الشوارع التي لا أعرف لم بدت لي ترعا صغيرة مستقيمة وسط الأحواض المربعة، أو أنها تطمح إلى أن تكون ترعا صغيرة تحت هذا القيط الأشد في العالم، ودائماً تشغي بالشباب الأفريقي العفي الهارب إلى الحلم الأوروبي.

والصاد شين كان عندهم شقة في عمارة في حي الطيوري جنوب سبها على طريق المطار، حوالي أربعين عائداً من مصر كلهم في الجيش الليبي سواء متقاعدين أو هارين أو ما زالوا مجندين، وحي الطيوري يشبههم إلى حد ما، فقير جداً ونصف عشوائى ونصف حكومي، مشروع سكني حكومي لم يكتمل، وهذا عادي في ليبيا، أي حاجة عادي في الجماهيرية العظمى، أنا شخصياً كان لي صديق ليبيا حاصل على ثانوية عامة أدبي ودخل طب، ولما فشل في الطب دخل هندسة، وبيجي عشر عمارات سكنية تفتح على ساحة متسعة.

حي الطيوري فيه، في الأول، العمارات السكنية الحكومية المكتملة والتي لم تكتمل، والبيوت اللي ع الطوب الأسمنتى، وفي الآخر العشش المليئة بالأفارقة.

والصاد شين أصحابي كانوا ساكنين في العماير، حوالي أربعين صاد شين، ولكن عادة كانوا لا يجتمعون في شقتهم معاً أكثر من عشرة والباقي في الخدمة أو في الظروف أو في الهرب من أيتها حاجة، وكانوا جميعاً إلا أنور الرمحي ويمكن بأنور الرمحي في الأربعينات من عمرهم، وكانوا جميعاً جاين ليبيا في السبعينات للعمل والعودة إلى أهلهم في مصر لكنهم قعدوا، وكانوا جميعاً يتحينون العودة إلى مصر، وكانوا يطبخون المبكبة، المكرونة باللحم، في أزان كبير، وكانوا كلهم ضايعين، لا عارفين يرجعوا مصر بخيبتهم الثقيلة وعمرهم اللي راح ولا قادرين يستمروا مرتزقة في كتائب الزعيم.

التعريف الأصلي للصيد في بلاد الودن الطالعة من تحت الطقم

- كلمة الصيد بالبدوي الغربي لا تعني الصيد أو المتصاد ولكن الواد الفهد السريع المرن اللّي يُخطف الطير ويفلت من أي حاجة وأي حد، والصيد هو التعلب اللّي بيخطف الفراخ من البيوت.

والصيد هكذا، فهد يخطف الطير، طويل وأسمر ومرن وممشوق القوام وله وجه وملامح وعيون حادة صريحة واثقة حتى في الكذب، وهو من الجيل السادس، الجيل اللّي المفروض يقول لي يا عمي لولا شوية سنين.. لا أعرف كيف أسميه، جيلي الخامس، مرة سميته جيل العربيات الفارهة.. وجيل النفخة الكدابة لو عايز تشتم، وجيل أبو الصيد، أو جد الصيد في الحقيقة، جيل الستينات الحبيب: سميته جيل الفقر القاطع.. وجيل الفشل الذريع لو عايز تمعن في الشتيمة، وبينهم جيل السبعينات، ودول جيل الفنانين، كل واحد كان ضارب بوز بأي شكل من الأشكال، واللّي بيشعر واللّي بيرسم واللّي بيروي واللّي بيعلق صور رقاصات خليعة في قلب مندرة البيت، وأغرب ما فيهم أنهم حتى في الملامح والله -والمأساة طبعاً- شبه رموز جيل السبعينات الشعري في مصر، أنا سميتهم جيل الرءوس العارية والهجوه الحليقة.. وجيل الضياع الحتمي لو عايز تشتم.

جيل عجيب حقاً، ع الأقل كلهم ماتوا بدري، لم يبلغ أي منهم أو من مشاهيرهم الستين من عمره، وكل واحد فيهم كان مضروب بأي شكل من الأشكال، من ابن العمدة لابن الغفير، من النائب في البرلمان حتى الفلاح في الغيط، والعجيب إن اللّي مش مضروب من جيلهم هو الأبله والأفشل والهفية بينهم، وهو "اللّي ياكل ويشرب ويمشي الغيط وييجي م الغيط وينام زيه زي أي حيوان"، وكلهم بدون استثناء عمدوا أنفسهم بنفسهم في فروعهم وعزبهم وعائلتهم كلها..

هابقى أقول لك على موضوع العزب. جبت سيرتهم ف الفاعل، التسع عزب، التسع نجوع اللّي بقت عزب معدودة ع الخريطة ولها مدارس ومراكز وأندية كبيرة تنافس على دوري المنطقة.. وكل عمدة ظابط حياته ومجوز عياله وبيتنمس حواليه على أي واحدة، وكلهم يرى في نفسه العمدة اللائق والأحق بعمودية العزبة.. عزبتهم الأم، أم النجوع والله، مصر أم الصابرين وهي أم النجوع، أو خليها كبيرتهم وأويتهم وحاميتهم لأن الحوش موطنهم الأصلي، وتبعها التسع نجوع اللّي بقت عزب كبيرة معدودة ع الخريطة بمدارسها ومستشفياتها وجمعيتها الزراعية، وطبعاً كل واحد متقدم رسمي للعمودية ف المركز وفق قناعة تامة بأنه الأحق والأجدر منهم جميعاً، "مان هضول!" أو "مين دول!" حسب جلابيتهم ولهجتهم الجديدة ورءوسهم العارية.

واتعطلت واتوقفت عموديتنا رسمي بقالها ربع قرن ويمكن تقول إن عموديتنا انتهت تماماً كمنصب ومكانة ودور في المجتمع، ولكن بقى عندنا ييجي ست عمد متعمدين في بيوتهم: من حيث المندره المفتوحة وحل المشاكل والجري على الشرطة في حال القبض على أي واحد، وطبعاً من حيث تصدر

أي حاجة والطمع في المناب الكبير .
ودول أول ناس في صنفنا ، في قبيلتنا الرماح خصوصاً يعروا روسهم ويلبسوا الجلابية الفلاحي ،
والادق الفلاحي الأفندياتي اللي بلياقة وجيب محرود ع الصدر ف البيت والغيط، والبدة الكاملة في
الصور، ودي نقلة مش عارف مرت ازاي وسادت هكذا، فجأة خلعوا الجلابية العربي أم أكمام واسعة
وصديري وقفطان وبقوا أفندية بروس عريانة، وهذا صاحبه انفلات عجيب في ملابس النساء في
نجوعنا، تحرر وأناقة ورغبة ف الفرحة والافتتان، وظهر الفستان المحزق المقور اللي لحد الركبة.
والحقيقة إن بناتنا أو خليها بعض بناتنا، أو خليها النادرات من بناتنا أنيقات، محبات للجمال
واللبس والجسم والأناقة، وبنات جيل السبعينات بالذات كانوا حكاية ف الحكاية دي. كنت تطلع ع
الترعة أو الغيط أو السطوح نفسها تلاقي الألوان بتللع، جلايب نص كم ومقورة وتقرح وتقرح والله،
مافيهاش ضرر لأي إنسان.. بالعكس فرح ومنتعة وانشرح.

والعجيب يا أخي إن بنات جيل السبعينات هما اللي حجبهم السلفيين، أقصد أول جيل في سلسال
الحجاب الممتد حتى اليوم، طبعاً النقاب هجم من التسعينات، وبقيت تروح تلاقي عزبنا غابة سوداء
من المنتقبات.. التسعينات! نعم التسعينات، النور والضلمة، البشرى والنذير، الحصاد المر اللبي
زرعه السادات وفجره.. الحقيقة مش السادات بس، السادات كشف غطا "البكابورت" القاتل فقتله.
ما علينا. خلينا ف سبعيناتنا.. كثير من بناتنا أنيقات جداً وعلى أحدث أزياء الموضة حتى في عز
النقاب، لكن دايماً فيه وذن، سواء كانت وذن البنت الجميلة اللي ماشية تتنطط بشعرها وسط هذه
الغابة السوداء الدامسة بالمنتقبات، أو وذن الأناقة نفسها، ترى البنت لأبسة طقم على أحدث موديل
وطالع من تحته وذن، سواء وذن المريلة أو وذن جلابية الخبيز أو وذن هي شخصياً وهي "ما يعلم
بيها إلا ربنا". لي خالة أمية وقورة وشرسة الحقيقة، كانت منوطة بأزياء بنات النجع وخياطته
الوحيدة المتسلطة، وكانت بتتحرك في الأفراح والمناسبات ببدة خضرا تحت شرخة فلاحية ملونة
بفيونكة عالية بأربع ودان.

ووالد الصيد من هذا الجيل، مش جيل خالتي جيل السبعينات، وكان أول واحد يخلع العمة والطاقيه
والجلابية العربي والقفطان والعروية نفسها ويمشى باعتباره إنسان مديني متحضر، والشاعر قال
فيه: "موسى اللي داير أفندي وداير لي راديو بولندي هابا لو تسمع أخبارا"، وفي ذلك الوقت لم
يكن في عزبتنا والمنطقة كلها إلا راديوين وحيدين وثابتين ميتحركوش أبداً وبطارية، ولما ظهر
التليفزيون كان تليفزيون واحد عند عمي حمزة، وبيت عمي حمزة لم يكن له سور، لم يكن غنياً، كان
غفيرا مثل أبي، ولكنه كان متصالح مع الحكاية دي، لكن جايها من فوق لتحت، ابن العمدة
وبببشتغل غفير، وكان إمام احتياطي في الجامع لو غاب الإمام الأساسي عمي العمدة عبد الحميد،
وكان بيته واسع ومحب وكنا نقعد عنده، العزبة كلها، لحد ما التليفزيون يشطب. والحقيقة عزبتنا
مفيهاش أغنيا، قصدي النخبة الغنية المنعزلة المرفهة، كلنا عايشين زي بعض تقريباً، واللي لم شوية
أرض لهم أساساً لأنه عايش أفقر من الفقراء، خايف من الفقر وعايش فيه كما قال خالي مختار،
وجيل أبويا وأمي وخالي وعمي حمزة وعمي العمدة وخالي مختار شاف فقر أكاد أقول لك لم يره
إنسان على ظهر الأرض، كان عندهم ثلاث شهور في السنة مسمينهم "شهور الجوع"، وأعظم
مفاخر الواحد والواحدة منهم "الحمد لله نا ماجعتش أبداً"، ومرة روحت لأمي في العزبة عامل
رجيم، فقالت لي: "إيش الرجيم هضا" فقلت لها: "الواحد يقل الأكل شوية" فقالت: "إيش تشوي
الوكل هضا إحنا ما صدقنا طلنا الوكل".

لكن عمي موسى كان شبعان ومتنغغ من يومه، وكان أمير فعلاً، أبيض ورفيع ونضيف وعنيه واسعة

وفيه شمخة غريبة كده وله شعر ناعم مسترسل للخلف، وفي عز راديو البطارية الثابت في مكانه - كان عمي موسى معاه راديو بولندي محمول قال الشاعر: "هاها لو تسمع اخبارا"، وفي عز ما الناس حفيانة ولا تعرف من الحياة الدنيا أبعد من الكوبري في أول العزبة كان عمي موسى بيصيف في أفخم فنادق الإسكندرية.

والبعض يرى، الحقيقة أمي تحديداً ترى أن اللي بوظه، أو حضّره لدرجة البوظان أو عوّقه وتعبه في الحياة الدنيا هو الإمعان في النغمة "كيف بوك عدل، لكن بوك حاجة تاني، بوك كانت أما مسكينة، لا تعرف تحت الله حيلة"، موسى اتولد في حجر عجوز قوية ناجحة غنية خذلها كل الرجال، "كلهم كلهم" كما تضحك أمي، "لاخوة اللي كلوا الميراث وضنا العم اللي عايزين ياكلوه فعلاً"، والراجل اللي مات صغير "وخوه الطماع الطاغية"، لكنها انتصرت عليهم جميعاً وبقت أغناهم، ميت فدان وفي أجود الأراضي اشتترتهم بكديديها ولم يبق من اللحم إلا الولد المعوض، وجاء عمي موسى، جاء والد الصيد، أبيض وطويل ومهيب وابن أمراء فعلاً.. لكن دا موضوع تاني خالص خرينا ف الصيد. لما سافر أو اضطر للسفر كان قضى الجيش بالحيلة، وكان عمل كل اللي يخطر على بالك من أمور الشقاوة والسرقة والخطف والتحرش وكل حاجة، وكان يذهب الفيوم المدينة أساساً من أجل ترويع البنات، هو يحب البنات، ويتكسف منهم جداً، لكن كان لا يجد طريقة للتعبير عن حبه وكسوفه إلا الانقضاض عليهن للأسف، يفاجأن به طالع عليهن عريان ملط ومحمبط من فوق لتحت، والواحدة تصحى من النوم عليه وهو نازل يتسلل إليها من السطح أو منقض عليها كصيد حقيقي من أي حنة.

ومرة خلط "مش عارف إيه على مش عارف إيه"، وخطر عليه فلاح غلبان من عزبتنا تقريباً "رد عليه في حاجة أو رفض له حاجة وهو فايق"، وتملكته مشاعر الانتقام وتآججت مع الأنفاس والكاسات أو يمكن تكون برشامة عجيبة دفعت الصيد لجركن الجاز والهجوم على بيت الفلاح المسكين اللي أساساً كله بوص وليف ومتفجرات أخرى وولع فيه، ولما هبت النار فاق وانتبه للمصيبة، ولولا إنه انتبه وصار يصرخ ويخطب على البيوت في عز الليل لاحترقت عزبتنا كلها، وفي هذه الواقعة أصيب الصيد الإصابة الجسدية الأولى.

اتلم الناس وانتبه للمصيبة وعاد يشارك في إخمادها من فوق حيط البيت، وكانوا بيناولوه الماء في حلل وأواني مفتوحة وكان ينترها على النار بمنتهى القوة والحماس وهو مغمض عنيه، وفي مرة ناولوه جركن مقفول، نتره على النار فشده معه إلى قلبها، واتشفشفت رجليه، ولكنها لم تحل أبداً دون قدرته الجبارة على الجري والتسلق والتزلق والزوغان "من أيتها حكومة وف أيتها بلد.. على الأقل أثبت كفاءة معتبرة في ثلاث بلدان، مصر وليبيا وإيطاليا.. مصر دانيال أطسا الفيوم القاهرة الإسكندرية وشرم الشيخ، والأخيرة كهارب أو عابر أو عائذ من إيطاليا خايب ومكسوف ومش عارف يعمل إيه، وليبيا طبرق بني غازي البيضاء سرت ومصراته. وبعدين إيطاليا لمبادونا وسيبيليا وميلانو وغايات ميلانو وخرائبها العامرة.

طبعاً الصيد ليس حرامي ولا يمكن يكون حرامي لا قبل السفر إلى إيطاليا، ولا بعد العودة من إيطاليا، وسرقاته لا تعدو كونها شيطنة شباب، مرحلة يمر بها عادة اللي جدودهم لهم شعر فخم يمدح في فروسياتهم في النهب والسطو المسلح، وربما الشباب كلهم هكذا، حب الفتونة والمتعة وم فيش مانع من الخطف لزوم الأكل، "خطفاية كده لزوم الكيف والسهرة وممكن نقبل ناشف على فكرة"، ولكنها طولت معاه، وهو من ناحيته استهبل ونط على البيوت في انصاص الليالي وفقد الثقة وبقى لا يطاق، هو نفسه لا يطيق نفسه، وبعدين الفقر والأحلام الكبرى، "الديوان اللي فاتح امبحر

والعربية الآخر موديل والفلوس اللي بتتبحتر ع البهايم"، ولم يكن هناك حل أوضح من حل لمامين الخرا، هم فقط البني آدمين الوحيديين اللي ودعهم الصيد حفايا واستقبلهم أمراء.

الهجوم

خزناً ف الجبل، حوش وسط الجبل، جبل زوارة القاطع، أنا ومحمد الزعيم وييجي مية وخمسين واحد مصري وشوية باكستان وبنجلاديش والباقي أفارقة من غانا ونيجيريا وكينيا، والحوش كان واسع وليه سور وسيطرننا عليه، إحنا العرب الوحيديين، وحتى المهربين كانوا بيعاملونا على إنا قادة المعسكر، والباكستان والبنجلاديش قعدوا في أوض على جنب والأفارقة عملوا عشش خشبية صغيرة جنب السور، وقعدنا ثلاث شهور مساجين فيه، مساجين مساجين، ممنوع علينا حتى النظر بره السور، وشرطة الدعم الليبية ترعب الحجارة حوالينا وهي بتدور علينا، عن المتخزين بالذات. والتخزين هو اسم عملية التخزين أي الاختباء في الصحراء استعداداً للهرب في الماء، وكل ما نسأل يقولوا بكرة، طب إمتى ما حدش عارف! وف يوم اتخنقت، وقلت هاطلع هاطلع واستهبل زي م باستهبل لما تسود في وشي، وخذت الزعيم ونزلنا مدينة زوارة القريبة، واتمشينا ف الشوارع واشترينا حشيش وبوخة، خمرة بنتعمل شمال ف البيوت والمزارع، الخمرة ممنوعة ف ليبيا زيها زي الحشيش وأشد.

المهم جبنا ورجعنا ف الليل، ودخلنا البيت وسبتهم يجهزوا القعدة ف الصالة ودخلت جوه وقلعت، وطلعت حافي وبالطقم الداخلي أملا الجركن م البير برة ف الوسعاية، وسمعت حركة ولحت خيال، الباب كبير فيه فتحة، ويا دوب قربت منها لقيت وشي ف وش العسكري عدل وصرخ: "صبي يا ولد القحبة"، اتلقت لقيت واحد تاني طالع فوق الباب وضرب كشاف كبير وبم ف وشي عدل، فخذت ف وشي ناحية عشش الأفارقة، ووانا بجري لقيت واحد على السور "انزل لوطا انزل لوطا" وشد أجزاء الآلي، واللي معايا جوه افتكروا إني بتعارك مع الأفارقة، دايمنا كنا بنتعارك معايم، وطلعوا بالعصي والسكاكين، ونطيت فوق السور ونطيت وجت نطتي على بوز عربية الدعم الليبي، بم وطرت وطارت ورايا.

وقلت انتهيت، شرطة مسلحة بتجري وراك في جبل، ولكن طلغوا غلاية، سود وخوافين، ووانا بجري لقيت زربي غنم، شبكة من حبال الليف فيها غنم اترميت وسطهم، هاجوا شوية وهديوا، ولما وصلت الشرطة طلغ لهم الشايب صاحب الغنم وصرخ "مان!" قالوا "نحننا الدعم، شرطة الدعم"، قال لهم "بلا دعم بلا زفت اتريد ايش يا دعم!!" قالوا "فيه جماعة مصريين هربوا منا وواحد جرى هك" قال

لهم "برا نيك يا دعم انت تنوضني م النوم من شان واحد مصري ممصخ!! هيا حول من هنا يا ممصخ"، وجم محولين. وانا نايم ف وسط الغنم متجمد م الخوف، اللي شتم الحكومة كده هيعمل معايا أنا إيه؟! ومشت الشرطة وفضل واقف يتلقّت بييجي ساعة، مرة يحك ومرة يتمطع ومرة يظطر ومرة يبص ف العتمة بمنتهى الغباء، وريحة الغنم فظيعة، ونايم مكان الخرفان وميت م الخوف، وف الآخر دخل ولما حسيت إنه نام كتمت نفسي واتسحبت على بطني من وسط الغنم ونطيت بره الزربي وطرت جري.

جريت ما يقلش عن خمسة كيلو، وليل وكل شوية اتكاوم في حفرة وأنا شايف نورعربية الدعم وهي بتلف لحد م لقيت مزرعة زيتون وجواها معاصر زيتون ضخمة قديمة من أيام الطليان، وعلى ما دخلتها هاج عليا جيش م الكلاب، جيش جيش، ما يقلش عن أربعين كلب، قلت بس اتفضحت، اتأكلت أكل وطلعت جري لحد م لقيت وطواية، حفرة كبيرة، بصيت فيها لقيت طريق رايح جي، طريق الجميل اللي بيربط بين زوارة والجميل على حدود تونس، ولقيت فوقها أوضة نص عريانة بتاع مترين ف مترين ولها شباك ع الشارع، وعمري م بردت ف حياتي ولا هابرد زي البرد اللي شفته فيها، حسيت إن عضامي بتتفري فري، والقرة، القرة عارفها! كانت بالنسبة ليا راحة ودفا م الزمهيراللي كنت فيه، وقعدت ف الأوضة دي م الساعة عشرة بالليل لحد الساعة ستة الصبح في برد الجبل، وأنا لا قادر أنام ولا أقعد، باتنطط بس، وشايف عربيات الشرطة واخدة المصريين والباكستان والأفارقة اللي كانوا مخزنين معايا ومكتفينهم ومنيمينهم في أرضية العربيات فوق بعض على طبقتين، وكل عربية فيها عساكر واقفين فوقهم بالبيادات وهاتك يا ضرب وهاتك يا شتيمة، واللي يرفع راسه يدفسه بدبشك البندقية ف راسه عدل "تبي تعدي إيطاليا يا بن القحبة.. تبي تعدي إيطاليا يا كلب.. ارقد يا مصري يا ممصخ".

فقيد أكتوبر الذي كاد يضيعه الصيد

الصيد في الأول سافر إلى ليبيا كمهرب، "حته يتأوى فيها لحد م الناس تنساه وتنسى جرايره"، وهناك راوده الحلم الإيطالي، النقلة التي ستحقق كل شيء، ونزل على واحد من قرايينا كان من مفقودي حرب أكتوبر 73 بل موتها وخذنا العزا فيه، وإذ به كان هربان عند أسرة في الشرقية لها ورشة اختفى فيها ثلاث سنين وبعدين طلع على ليبيا في هوجة توطين العرب المصريين أيام الزعيم. والصيد اشتغل معاه تقريبا عجان لبنًا أو مبيض محارة في العمارة اللي غافرها أو بيشطبها، عمارة أربع أدوار وتبص على حوش.. الأذق قعر حوش، أسرة ليبية من أب وأم وأربع بنات شبابات، وف يوم لقي قريينا نفسه محتجز، محبوس ومحاصر بالسلاح "لحد ما تسلم ضنا عمك السايب اللي هتك عرضنا ولازم نقتلوه"، وفين وفين لحد م فهم "إن الصيد اللي معرفهم عليه باعتباره ابن عمه ومن عيلته اللي تسد عين الشمس في مصر اتعري في وسط بيتهم، فرجح على سطح العمارة عريان ملط "والبنات الأربعة" تموطول النهار مستوهين تحتًا.. تحتًا تحتًا، لا أعرف كيف أكسر الكلمة بحيث تكون تحتًا عدل.

وطبعا الصيد فر، الفرار لعبته أساسًا، ورجع من بعد يتفاوض فقط من أجل إنقاذ ابن عمه من القتل المحقق ونكر الموضوع حتى "للي حجوه بعيونهم"، والليبيين طيبين وكذبوا عيونهم، لكن شرطوا يمشي، وساب سرت كلها ونزل على جماعة أقاربنا في مصراته، وتقريبًا هنا التقى محمد الزعيم

الرمحي ابن عمه من بعيد في مصر، أما في ميلانو فابن عمه عصب ويسد فيه، "وياما سد فيه لحد م كان هيتقتل قتل في البلتس 42 ومحطة القطر وبيت العز"، ثم واقعة كمبيوتر القاضي "اللي كان هيروح فيها فعلاً".

ومع السجاير المعتبرة والبوخة عاودهما الحلم الإنساني، النقلة، البيت اللي أحسن من قصر ابن بتاع الخرا والعربية اللي آخر موديل والفلوس اللي تخلي الواحد ميشتغلش.. ممكن نقبل ناشف على فكرة، مبلغ محترم يكفي جيلين ثلاثة والواحد ينام، ولم يكن هناك أسرع ولا أجن ولا أسطورة ولا مش عارف أقول إيه ولا أوصف ازاي من النقلة اللي حصلت مع أولاد جماعين الخرا، الأكوخ وديران البهايم اللي اتحولت إلى قصور مشيدة وفلوس وأسماء لامعة ناجحة وغنية في مهن ومشاريع بل مرافق كبرى كاملة في ميلانو وإيطاليا كلها، وهم كثافة يا أخي، قرية مصرية بكاملها انتقلت إلى إيطاليا، حي بكامله في قلب ميلانو وباسم تطون، وكلهم جاء بطريقة واحدة وحيدة هي التهريب - ويمكن تقال التعريق- من السواحل الليبية إلى السواحل الإيطالية.

وما إن فكر الصيد والزعيم في التهريب حتى جاءهم المهرب، كان قاعد معاهم أساساً في قهوة سوق الخميس في مصراته، والموضوع معروف، بضاعة معروضة في السوق، تسعيرة عالمية، وهم في تعريق الدرجة الأخيرة، الترسو، "الثلاثين ألف جنيه اللي المهرب هياخد نصهم دلوقت ونصهم هيرهن عليه جوازك اللي هيرجعه لأهلك في مصر لما يدفعوا النص الثاني وتسلمه نفسك"، وحجز الجواز له ميزة أخرى، حيث يسهل للإنسان المهرب اختيار أي من الجنسيات والشعوب العربية المأزومة أو المتحاربة كفلسطين والعراق أمام السلطات الإيطالية، والصيد اختار العراق، وأطلق على نفسه على اسم مهربه آدم عبد الله صفيط.

سوق الخميس

كان معايا الزعيم وميده أبوغالب ومحمد النايض وأحمد من روفان وصالح وأخوه علوم من عيلة الأعرج وعيل ثاني من منية الحيط، وكلهم من عرب الفيوم، وقعدنا ف سوق الخميس بتاع أسبوعين، ورجعت لأصحابي البلطجية، كانوا عيال من أكبر عيلة ف السوق ومشيطين السوق والمنطقة كلها سرقة وتخطيف، وعرفوني على مهرب جديد اسمه آدم عبد الله صفيط، وقالوا هضا هو اللي بيعدي إيطاليا، وف الأول خزننا ف الكافتريا بتاعته ف زوارة لحد م نكمل، وكان معاه سوداني متفرعن وظبطناه، كان طويل جداً وعفي وفارد نفسه ع المصريين بالذات وعامل عليهم ليبي وهو خدام معفن، ومفيش في بقه إلا يا مصري يا ممصخ يا مصري يا زامل، ومسكته أنا والزعيم ومسحنا بيه

الأرض، ومن يومها بقى زي الجزمة وأدم نفسه خافٍ.
وكان فيها اتنين شراميط من تونس ف الكافتريا، بينزلوا مشاريب وبيناموا ف أوضتين على جنب،
تعجبك الواحدة فيهم تروح ظارفها بميت دينار وتخلص معاها ف الأوضة وتطلع، ماكنتش أول
واحدة، نمت معاها. ومرة اغتصبت واحدة ف الفيوم، مكانش اغتصاب اغتصاب عشان متفهمنيش
غلط، كانت من عزبتنا واتجوزت واحد في عزبة تانية، وعمري م بصيت لها، وهي مش حلوة خالص
وكمان ممصوصة جداً، جلد على عضم، وادسيت لها ف الغيطان، الدراوي العالية.. لكن ما عليك،
العجيب يا أخي إنها كانت أول وحدة اشوقها بعد م رجعت من إيطاليا، بس التونسية كانت أول
وأخرواحدة أتمنى أعيش معاها طول عمري، كانت بتحب الراجل، الراجل نفسه، ومش م النوع اللي
يقعد يشتكوي ويقطع قلبك، وإنما تقول لك إنها بتشتغل ف الحكاية دي لأنها بتحب الحكاية دي،
بد"أحب أن أسعد الرجل" وعينها قد كده ومفيش أجمل من كده.
وجوه الكافتريا كان فيه نفق نازل، دحديرة كده بتفتح على بدروم كبير تحت القهوة كنا بننام فيه،
وقعدنا أسبوع وجت مجموعة جديدة عايضة تسافر وكترنا ف الكافتريا، واتحايلت على آدم كثير ناخذ
البنت التونسية معنا وأتولاها ولكن أبداً.

تطون

في وسط نجوع العرب جنوب الفيوم فيه عزبة اسمها تطون، كلها فلاحين وحواليها العرب من كل
ناحية، وأظن هي أو عزبة خليل الجندي القريبة بتتباهي على عزب المنطقة بإنها "مافيهاش ولا واحد
عربي ولا واحد مسيحي". وفقراء الفلاحين في تطون كانوا بيلموا مخلفات العرب، مخلفاتنا إحنا
شخصياً وليس مخلفات البهايم والزبالة المعتادة.

في ذلك الوقت وربما لحد دلوقت كان العرب يقضون حاجتهم في الطل، بهائمهم يقضون حاجتهم
في الغيط والبيت وهم في الطل، أول حرية يفقدها الصحراوي الريفي عموماً في المدينة ألا يفعلها
في الطل، وأنا نفسي أشد ما عانيت منه لما جيت القاهرة هو فضيحة فعلها في الطل، وهي خصلة
قديمة فرضتها ظروف الصحراء وشظفها وحريتها وبوهيميتها طبعاً، وطبعاً تعرف إن السيدة عائشة
زوجة النبي اتهمت إفگا في صفوان بن معطل وهي تقضي حاجتها في الطل.

وكان التطاينة يلمون شغلهم في غبطان شنفاص كبيرة ينصبونها على الحمير ويعبونها بغلقان
كبيرة من سعف النخيل، وعلى فقرهم كانت غلقانهم وحميرهم أعلى وأقوى وأكبر من غلقان وحمير
عزبتنا، وهم شخصياً كانوا أصح وأنظف وأنشط من فلاحي عزبتنا، ولما يتملي الغبيط يكفي الغلق
على وشه فوکه "ويروح ناطط فوقيه وقاعد ومتجسطن كده وكأنه قاعد على كرسي الملك"، وكانوا

يسمدون به قراريطهم القليلة التي كانوا يزرعونها خضراوات ومأكولات يبيعونها للعرب أنفسهم في سوق السبت في تطون وسوق الأربعاء في الغرق، وهكذا تدور الحياة، العرب يأكلون ويتغوطون والتطايينة يلمون ويبيعون، ويوصفوا في قوته وخصوبته في زراعة الخضراوات، والعرب طبعا وكالين، وكالين وكالين يعني، وكسالى ولا يحبون العمل "وكعل الواحد منهم كان بالنسبة للتطوني الشقيان راحة من طول الألف طول النهار على بعرة هنا واللا هناك".

وفجأة ظهرت إيطاليا، وسافر، الأذق، أبحر، الأذق غرق عيال ولاد جماعين الخرا ورجعوا أباطرة، أباطرة أباطرة، فيلل وقصور وفلوس ونجاح كبير هنا وفي إيطاليا، اثنين من أصحاب الصيد وجيله وفي سنه، واحد صاحب شركة السقالات الكبرى في ميلانو كلها، والثاني صاحب توكيل واجهات العمارات في ميلانو كلها.

وهم جميعاً ركزوا مع ميلانو، ويعتبروا جالية أو على الأقل طائفة ملحوظة، "فيهم اللي عايش مثل الصيد في الخرابات والغابات والقلاع المهجورة، وفيهم اللي عايش في شقة واللي كرمه ربنا ببيت وعزبة بحالها" مثل الإخوة الذين حولوا مبنئ حكومياً أثرياً إلى عزبة كاملة في وسط الغابة، والخارجين منهم كان مركزهم أو أشهر تجمعاتهم ف بلتس أي عمارة 42 في قلب ميلانو، وهي معروفة تماماً لتجار المخدرات ورجال الشرطة والخارجين على القانون عموماً في ميلانو كلها حتى الآن، ومرة هجمت الشرطة على البلتس 42 والصيد قاعد في شقة فيها مع زميل ومعاهم 2 كيلو هيروين، وفي انتظار الشرطة التي كانت على الباب "فرشوا الاتنين كيلو بينهم في الحمام وبقوا يسفوا فيهم لحد م غابوا عن الوعي".

مزرعة الأرانب

ونقلنا لمزرعته ف الجبل، حوالي تلتميت فدان وف وسطها حوش ومزرعة أرانب، حفرة كبيرة تيجي خمسة متر وعرضها ثلاثة وطولها ييجي تلتمية وكلها أرانب وسراذيب للأرانب، ف الليل تلقى الأرض بتشغي أرانب، وعلى م تبص تختفي، وأدم على فلوسه أو بسبب فلوسه كان بخيل، وكان بيوكلنا طقة واحدة ف اليوم وتجيلك ف الليل، وكنا جعانين على طول، وسهرت طول الليل أراقب الأرانب

وعملت الخطة. ف الفجر، في عز الطراوة والهدوء، يطلع الأرنب م السراييب وم الحفرة كلها ويتمشى ف جنيئة الزيتون بتاع ساعة ويرجع قبل م تطلع الشمس، وجهزت المجموعة كلها، الخمسة وتلاتين راجل، وقعدنا سهرانين جنب الحفرة، وع الساعة تلاثة ونص بدأ الأرنب يطلع م السراييب جماعات جماعات لحد م كملوا بييجي سبعين، وسد سد سد سدنا السراييب بعفش الرز، ماكنتش كتيرة بس عاملة خرايط وأخايد جوه الأرض، وجماعة راحوا الغابة يلما الأرنب وجماعة استنوه تحت ف الحفرة، وجم يجرؤا وورا وع السراييب مش لاقين، بس فيهم اللي عرف ودب دماغه في عفش الرز ودخل ودخل وراه بييجي ستة، بس مسكنا شوية، والواحدة ندبها ونسلخها سلخ وننصفها ونشويها ع النار، وقعدنا ع الحكاية دي بتاع شهر، لحد م الأرنب بقى يخاف يطلع من السراييب حتى للمية والأكل.

آدم عبد الله صفيط أصلاً من البربر وبيتكلم العربية والبربرية والإيطالية وعنده ستة وعشرين سنة وتشوفه تديله خمسين، طويل وتخين وابيض وشعره سايح ومسنود، مش زي المهرب اللي فات، ليه ناس ف الحكومة الليبية، ولية أخ اسمه الزنتاني هربان من خمسة وعشرين سنة سجن ف قضية تهريب، بس هربان دي ع الورق إنما هو كان بيتحرك عادي ولو حد م المتخزين اتقبض عليه يروح يطلعه م الشرطة عادي، وعموما التهريب بالنسبة للإخوة الليبيين والعرب عموما م كانتش جريمة أو شغلانة تكسف، بل بطولة، ولما تسأل الواحد منهم شغال إيه يقول لك بمنتهى الفخر بنخدم ف التهريب، زي العرب كده ما كانوا بي فخرو زمان بالسرقة والنهب باعتبارها فروسية. وأدم كان م الناس الواصلين ف الحكومة والشرطة الليبية، وأبوه كان م اللي قاموا بالثورة مع العقيد معمر القذافي في الفاتح من سبتمبر، وكانت كلمته مسموعة، لما يخش المخفر يقول لك الحاج صفيط جا، ومرة هجمت علينا الشرطة ف عمارة بتتشطب كانوا مخزينا فيها مؤقتاً، واتصلوا بيه وجه بعد م ركبونا العربيات، وعلى م الظابط شافه نزلنا بسرعة واعتذر للحاج صفيط.

وف يوم جه آدم ونقلنا لمزرعة جديدة قريبة م البحر، ومنها طلعتنا الرحلة اللي شفت فيها الموت بعنيا. كنا أربعين مصري واثنتين توانسة، وركبونا مركب خشب، وأدم مظبطش مع الأرصاد، وركبنا وخلاص، ومشينا طول الليل، وعلى م وصلنا حقل اللوري البترولي على حدود المياه الإقليمية الليبية ف الصبح قامت ريح شديدة والبحر هاج، والموج بقى جبال جبال، انت بتشوف جبل جي عليك ويرفع المركب لحد م تلاقى قدامك مغارة ووراك مغارة ويروح نازل بيه لحد م نحس إن البحر بلعنا خلاص ويطلعتنا تاني. شفت بتوع التزلح لما تطويهم الموجة، أهو مركبنا كانت كده، تيجي الموجة تهدر وترفع المركب لحد م نحس إنها طارت وتروح خسفاها في سبع أرض، وعلى م نقب تيجي بلوة تاني، والعيال الاربعين اللي بينزح المية م المركب واللي ببيكي واللي بيتشاهد على روجه واللي بيدعي واللي يقول وحياة النبي عايز أبول واللي بال فعلا، وتمت مهصكة وتما عياط وتما صوت يا رب، يا رب، إكل شيايف الموت، وأنا قاعد م باعملش أي حاجة، قاعد مكاني مستني الموت، الدنيا حواليا بتصوت وتعيط وأنا قاعد ساكت، وياقول لنفسي لما هتغرق المركب هعوم، أنا بعرف أعوم، وطول م أنا عايم هتشاهد على نفسي، حاجة كلتني كلتني وصلت وصلت، وفجأة لقينا نفسنا تحت عمدان حقل اللوري! هو واقف على عشر عمدان، العمود منهم قد البيت الكبير، ماسورة خرسانية ضخمة جداً ومغلقة بالحديد، وشايلة الحقل فوقها، ولقينا سبع رجاله ببيصوا لنا من فوقه، واحنا نصوت لهم ارموا لنا حاجة، وحياة النبي ارموا لنا أي حبل نتشعبط فيه لكن مفيش، وسابونا ف الموت اللي احنا فيه واختفوا، وقعدنا نصارع ف البحر طول النهار، وكل م تيجي موجة نقول هي الأخيرة والبحر هيبعلنا دلوقت، لحد م لقينا جرافة ضخمة بتقول طاوووو، شاورنا لها قربت منا،

وقالوا لنا اهدوا، م تتحركوش واحنا هننقذكم، ورموا لنا حبل وربطناه في بوز المركب، وجرتنا الجرافة لغاية م سلمتنا لغفر السواحل التونسية، واستجوبونا: منين؟ مصريين. رايعين على فين؟ إيطاليا. فقالوا احنا عشان خاطر انكم مصريين وإخوة مش هينقبض عليكم وهنرجعكم ليبيا، وخذونا لمنطقة اسمها الملاحات على الحدود الليبية وشاوروا لنا مشرق "هك ليبيا وعلى م تطلعوا م الملاحات هتطبوا ف الطريق اللي بيوصل الجميل". وسابونا.

الزعيم

صالح بو حبونة الليبي هو نفس صالح بوحبوبة المشرقي المصري، ولما سافر ليبيا عرفوا عليه باعتباره من قبيلة أمه التي ينتسب لها الزعيم، ورغم انه لا يحب زوج أمه ويكره الزعيم وقبيلته شخصياً إلا أنه تجنّس بها، قيل له على الأقل "تاكل بها عيش"، وهي توكل الحقيقة، فكون الواحد من قبيلة الزعيم في بلد يحكمها الزعيم حاجة تفتح كل الأبواب وتذلل كل الصعاب. وصالح عربي مشرقى فقير كان يعيش مع أمه في عزبة عطية أقصى جنوب الفيوم، وكان يخدم مع والده في بيت العمدة، ولما مات العمدة وضاعت العمودية وانقسم الميراث وجاء من نصيب ابن لا يجد أساساً ما يأكله سافر إلى ليبيا في السبعينات. كان صبيّاً في السابعة عشرة من عمره، وسافر سلكاوي مع حمير التهريب، ونزل على السلوم وسار وسط حمير البضائع المهربة سبعة عشر كيلو في الصحراء، وعدى السلك ووصل إلى مساعد وسط مجموعة من جيرانه واثنين من أقاربه. وعلى طول عرفوا عليه كعائد ليبي صاد شين من قبيلة الزعيم، واشتغل في شركة للبناء مع الشوباش العربي الشهير بو قرقور والمطرب الأشهر عوض بو عبد القادر المالكي، وكانا مثله صبية في السابعة عشرة من عمرهم. وفي يوم جاءت خمس مصفحات من الجيش الليبي وأخذته مع المطرب وبو قرقور وكل الصاد شين العاملين في الشركة، وكانوا أربعين بين مؤهل وغير مؤهل، ولبسوهم في الجيش، ومركز تدريب من نار لمدة ثلاثة شهور، ثم تخرجوا في حفل عسكري حضره القائد الزعيم بنفسه، وأخذوا أسماء الشباب اللي من قبيلته ووزعوهم على حرسه الشخصي في العزيزية معسكره الدائم، وهو نفس المعسكر الذي صرخ فيها صرخته الأخيرة قبل أن يقتل، والباقي وزعوهم على سرايا الصاد شين المحاربة في صحراء أوزو. والزعيم كان يفضل الجنود الصاد شين ويثق فيهم ويعاير الجنود الليبيين بصبرهم وإتقانهم

وإخلاصهم وتفانيهم في العمل العسكري.

وأثناء الترحيل في الصحراء الممتدة بين سرت حيث معسكر التدريب وسبها حيث جبهة القتال في أوزو هرب المطرب عوض بو عبد القادر المالكي، هرب وعاد إلى مصر وبدأ مجده الفني، وانضم صالح إلى حرس الزعيم في العزيزية. كان حرس عادي لابس البدلة العسكرية والبوريه ومأفز وواقف بالسلاح على البوابة الرئيسية، كان فيه من الصاد شين رتب وعقداً وقادة كبار كالعقيد الريفي، الذي كان أصلاً رمحي من الفيوم وهو الذي حرر أوزو. وصالح لأنه غير متعلم كان عسكري عادي، لكن معه سلطة إطلاق النار على أي حد يدخل العزيزية دون إذن الزعيم حتى لو كان نائبه نفسه، وبهذه السلطة شارك صالح بوحبونة حرس العزيزية الذين فتحوا النار على الضابط حسن أشكال وأردوه قتيلاً.

أشكال كان من الضباط المقربين من الزعيم، وكان من قبيلته، وكان أصلاً ضابطاً مدنياً في شرطة سبها، وعندما قامت ثورة الفاتح العظيم نقله الزعيم للجيش، وعينه قائداً للقوات المرابطة حول مسقط رأسه سرت، ولا أحد يعرف سبب مقتله على باب العزيزية.

الزوديك

فجأة لقينا عربيات الشرطة الليبية فطرنا جري كل جماعة ف ناحية واتبحترنا ف الجبل، وانا والزعيم بقينا نجري ف الجبل لحد م لقينا خيمة وواحد بيرعى غنم، ورحنا له وقُلنا له احنا مصريين هربانين م الشرطة وربى خليك تحميننا، فدخل الخيمة وطلع معاه جلابيتين وسروالين وعمتين، وقال "غيروا هدومكم هدي والبسوا هاضول وديروا أرواحكم بترعوا الغنم"، ويادوب كل واحد لقط عصاية وبدينا نلم ف الغنم جت الشرطة علينا، فوقف لهم الراجل "خيركم ايش تبو" قالوا المصاروة، قالهم "برا نيك م هُنكش مصاروة هنا"، وشاور علينا "وهاضول عويلة خوي بيخدموا معاي برة نيك انت وهو" ونيكنت الشرطة.

وقعدنا مع الراجل ده لحد العصر، ونزلنا على طريق الجميل، وشاورنا لواحد راكب بيجو، ولقط إننا هربانين م الحكومة وخذ أجرة الطاق طاقين ووصلنا زوارة، ومن زوارة لسوق الخميس. وقعدنا ف سوق الخميس بتاع شهر واتصل بنا آدم وخرننا ف بيت فيه أسرة ليبية، وكنا حوالي

أربعين، وقعدنا ف أوضة مقفولة علينا ليل نهار زي السجن ست شهور، ف النهار بييجي عيال صغيرين يفتحوا لنا الباب ونتمشى ف الطرقة ونرجع الأوضة، وف يوم اتصل بنا آدم وقال الحكومة جيا لكم، اهربوا توا، قدامها بالظبط عشر دقائق وتطب عليكم الشرطة في البيت. وقعدنا الأربعين واحد نخبط ع الباب، نخبط ع الباب، نخبط ع الباب، وعلى م صاحب البيت سمع وفتح كانت الشرطة وصلت وقبضت علينا وخذونا قسم زوارة، واتفرج يا سلام وادلع يا ولا. دخلونا واحد واحد يتسئل ويدخل الحجز، واللي بيخش م بنسمعش إلا صوات، وأنا أول م دخلت لقيت واحد ورا الباب وعمل لي زو بالكف على قفايا، وعلى م اتلفت لقيت واحد تاني شو على قفايا، لسه بامسك نفسي لقيت واحد طاخ في ودني عدل، و"تبي تعدي إيطاليا يا مصري يا ممصخ" والضرب اشتغل.

كنا كلنا عرب من قبائل مصر، وكلنا بنتكلم اللهجة المصرية إلا واحد اسمه أبو النيد بلدياتي م الفيوم من نجع السريرة وما يعرفش يتكلم إلا اللهجة البدوية، وشرطة الغرب الليبي افتكروه ليبي مشرقى من الأعداء بتوع بنغازي وعامل نفسه مصري، وسبحان من صبره ف الليلة دي، كل نص ساعة يفتحوا باب الحجز ويقولوا وين المشرقي، وياخدوه يهلكوه ويرجعوه مش طایل النفس، أقول له يا ابو النيد يا بو النيد اتكلم مصري، أبو النيد، يقوللي "م نعرفشششش لسانى هك"، ويريحوا شوية وتعالى يا مشرقى لحد الصبح.

وف الصبح قال لك هيا هنودوكم سجن حوازة العنب، ودا سجن بناه الإيطاليين في مصراتة، ومغروف إنه موت احمر، يقلعوا ضوافرك ويقعدوك على قزاز ويكهريوك وينيكوك طول النهار والليل، وطلعونا من الحجز واضرب اضرب لكف لكف لحد م هلكونا، ووقف الأتوبيس ودخل الأتوبيس بظهره وحمل لمصخين، وطلعت عربية وراه، وع الطريق طلعت قدامه، فيها اتنين عساكر مسلحين ورا واتنين جنب السواق، ومعانا ف الأتوبيس اتنين كل واحد معاه بندقية آلى، وأنا والزعيم قعدنا في آخر الأتوبيس عشان نبعد عن الضرب والتهزيء، ولما طلعتنا الجبل حسيت إن القزاز اللي جنبى ممكن يفتح، وضقرت ضهري فيه وشديت واتفحت، وقلت له يا زعيم يا زعيم أنا هانط، وعلى ما هدى الأتوبيس طلعت رجليا وتنيت جسمي جامد وزنفت راسي ومسكت بإديا ف القزاز ومدت رجليا وسندت ع الررفرف وقبل م الأتوبيس ياخذ سرعته كنت علي بطني ف الجبل والزعيم ورايا، وطرنا جري ف الجبل، وعلى م حسوا كانوا مشوا بعيد، وكنا رحنا ف الجبل، واستخبينا عند شيخ بدوي بيرعى الغنم واشتغلنا معاه يومين.

وطلعنا على مصراتة، وقعدنا ف حطة اسمها كرازة الاربع شوارع، ولقينا الجماعة بتوع السريرة اللي كانوا متخزين معانا، وقعدنا معاهم بتاع أربع شهور، وبعدين رجعنا سوق الخميس وقابلنا آدم وخذنا للتخزين الجديد على أطراف زوارة في فيلا ليه تحت التشطيب على أساس إن إحنا عمال.

كنا خمستاشر واحد، وخذوا الباقي على مزرعة الأراب، وقعدنا فيها بتاع ثلاث شهور، وف يوم جتنا عربية الشرطة ونزل منها ظابط أسود نافش ريشه وسط شوية عساكر وعلى م عرف أنها فيلة الحج عبد الله صفيط واحنا عماله كش واترعب وقال باهي باهي ولف عربيته ومشى، واتصلنا بآدم ومشيلهم بهدلهم ف القسم "كيف وكيف تهجموا الفيلا وتروعوا العمال، انتو اتجنيتوا توا نوديكم للزعيم"، وكان الزعيم قاعد ومستنى أي حد يطلع ميتين أمه.

وف يوم جه آدم مكروب وقال لنا اجهزوا للسفر، وجت عربية وخذتنا على حوش تخزين قريب م البحر ولقينا فيه أمم، أكثر من خمسين مصري وييجي ميت أفريقي غير الباكستان والهنود والبنجلاديش،

ووقف آدم وسطينا وقال "يا جماعة توّ مهنكش إلا زوديك، اللي معدي إيطاليا زوديك"، وزوديك يعني هواء وموتور خمسين حصان وم بيشيلش إلا خمسة وبيركبوا فيه أربعين واحد، "هتركبوا يا مصريين"، قالوا "الأ احنا متفقين على مركب خشب"، وسأل الأ فارقة وقالوا لأ والباكستان لأ والهنود لأ والبنجلاديش قالوا "موافقين"، كانوا أربعين بالطبط، واتلفت لي أنا والزعيم وقال تركبوا قلنا نركب. طبعاً المصريين يقول لك يا ابني أنت اتجنيت يا ابني هتموت يا ابني هتغرق يا ابني الزوديك هوا وبيتخرم ف البحر، لكن أنا صممت هاركب يعني هاركب. وطلعت أنا والزعيم مع آدم ف عربية لوري، وحملنا فيها زوديك مموه بتاع جيش، وحملنا الخشب والموتور وجبناه على شط البحر ورا تل عالي، وفردنا الزوديك وحطينا الخشب ف الأرضية والأجناب وقفلنا السوست ونفخناه ونصبنا الموتور على آخره، وحطينا فيه عشرين جركن مية وعشرين جركن بنزين وعشر كراتين عجوة، كنا ستة لبيين وانا **وآدم** وجالنا يجي عشرين باكستاني، وشيلنا الزوديك ودخلناه ف البحر، وجه السواق رشيد التونسي، ولما الدنيا أيلت جاب آدم البنجلاديش الاربعين وقال إنت والزعيم مع السواق قادة الزوديك، ووقف ثلاثة لبيين ع الزوديك وابتدوا يشدوا البنجلاديش واحد واحد، وكل اللي يشدوه ينفضوه، إيد ف إيد و إيد ع المحفظة، م أصل اللي متهرب بيكون بهدومه بس وممعش حاجة إلا الفلوس، وركبت أنا والزعيم والسواق وكان معنا كيسين بوخة وصباعين حشيش، وانطلق الزوديك **وآدم** معنا، وبعد حوالي كيلو ف البحر قال توكلوا على الله وربنا يوصلكم بالسلامة وراح ضارب سحبة ف البحر.

مطعم الاومليت والبطاطس باللحمة

أمي كانت مفرطه فيّ تقريبا، هي كانت في حاجة إلى رجل ولقتني فاسترجلنتني، عاملتني إنني راجلها من موت أبي وأنا عندي خمس سنين، وباستثناء الجنس كانت أمور حياتنا تسير بيننا على اعتبار أنها الزوجة القوية الناصحة وأنا الزوج المخلص المطيع. لما اقارن بين قوتها وهي المرأة الأرملة وخوفي على عيالي الآن أستغرب، سابنتي أسافر مصر أشتغل وأغيب بالأسبوعين ثلاثة وهي مطمئنة تماما من وأنا في إعدادي، وكانت بتبعنتني الغيط أسقي في عز الليل وأبيت على الجرن وأنا لسه طفل في ابتدائي، وأنا من ناحيتي كنت منخرط، وعلى ما ترميني على حاجة أتحدف حدف، وأزرع الفدان وأشتغل بالأجرة، وفرحي العظيم وتحققي الأعظم في أن أسلمها ما اشتغلت به كاملاً.

لكنه كان لا يكفي لبنت عرب أو حتى فلاحين، "العوييلة بيسافروا.. سافر يا ولدي عايزه نُحَقِّ لك عيل قبل م نموت"، كان عندنا الفدان والحمار والبقرة والكلب والقلعة اللي بتتلهط والمندرة اللي بتتملي قمح يكفي طول السنة، ولكنها بدأت تقلق من قعادي، واللي مقلقها أكثر مصر، سفري إلى مصر "واحدة غربية تاخدا ومعدش نحقًا، سافر يا ولدي كل لعوييلة سافروا واشتغلوا وجابوا فلوس ونا كبرت وعايزة نحق لك ولد قبل م نموت".

وعلى ما نزلت لبيبا اطلعت على المأساة، السماء والطارق، صندوق من الرمل كما قال موسوليني، أضف إلى ذلك حادثة بني غازي لما نقضنا الظابط المجنون، و"مفيش إلا تقف ف السوق وتهجم مع جيش العمال المصريين اللي بيهجم على أي لبيبي عايز نفر واحد غالباً هيحصد شعير ف الجبل القاطع".. مرة حاولت في موضوع الصحافة ولم أجد غير الخواء، "الفتاح" و"الزحف الأخضر" الجريدتين الوحيدتين في سبها وفي لبيبا كلها خاليتين من البشر أساساً، مقراتهم في سبها بتصرف، والحقيقة أنني لم أصدق تماماً أو نهائياً الحقيقة إنني ممكن أشتغل في الصحافة في لبيبا، والحقيقة أيضاً أنني لم أسع للصحافة إلا في فترة الكساد المملة في ورشة أبو الهلب، وكان معي صديق عربي فيومي شاعر وأزهري وابن واحد صاد شين قديم ومهم، وكتبنا معا قصيدة مدح في الزعيم لعلها تسهل الأمور، ورددناها معا وبصوت عال في شوارع سبها ونحن عائدون من جريدة الزحف الأخضر وطالعين المنحدر الأحمر في أول الحي الصناعي بخفي حنين، وكانت ترجمة حرفية لبعض مقولات الزعيم في كتابه الأخضر ونظريته العالمية الثالثة "ومن تحزب فإنما هو خائن للعهد ليس بمن يفي" ترجمة أو استلهاما لمقولة "من تحزب خان" المكتوبة بالبنط العريض في الكتاب الأخضر وفي كل الشوارع الليبية للأجيال الحالية، ويقال مكتوبة بالمرمر في قاع البحر الأبيض المتوسط للأجيال القادمة.

المهم اني كان ممكن أرجع، مصر كانت أفضل كثيراً، غيطنا نفسها لو زُرعت جيداً أفضل، لكن لم يخطر على بالي الرجوع أبداً.

واشتغلت فترة في مطعم في ورشة الحسنواي الليبي ولحساب مؤجرها هادي التونسي، وفترة مساعد زواق عربيات، وأخيراً اشتغلت في البلوك. دعك من الظروف وإنني تركت المطعم في معركة عبثية، وإنني كنت سأقتل في زواق العربيات - أنا الحقيقة أعجبني استقلال البلوك ومجاله المفتوح "على قد م تقدر"، وإنجازته الذي لا لبس فيه، ثم إنه سهل، ليس مريحاً طبعاً بالعكس مهلك إنما سهل، البكيرة تتكون من صندوق حديدي فيه مكبس حديدي متحرك فوقه غطاء حديدي متعلق في حامل حديدي له ذراع أو سلاح أو مسطح حديدي يكبس الصندوق الحديدي المملوء بالخلطة ثم يرفع الغطاء وينزل المكبس لتخرج البلوكة بالمقاس المطلوب.

لكن اتضح إن الموضوع ليس بهذه البساطة للأسف، وإنها صنعة لها قواعد ورياح، وإن الحماس دون معرفة مدمر للأسف.

أساطين صناعة البلوك في سبها شوام، السوريين في عمل البلوك، وإمامهم وأكاد أقول سادتهم اللبنانيين في صناعة البكيرات التي تصنع البلوك، وأنا لم أتعلم شيئاً لا من اللبنانيين ولا السوريين، ظننت الموضوع قوة وقدرة على التحمل، وربما نظراً لطبيعتي أو ملامحي البدوية أو صدقي الذي يطفر من عيني وثق في ضابط مسئول في الجيش الليبي وتعاقد معي على صفقة، خمسين ألف بلوكة لمنشأة في الجيش الليبي، ويا ليتني لم أعملهم ولم أبعهم. "اتقول البلوك في أيدين العساكر اللي جم يحملوه في عربيات الجيش"، وكان المفروض أن أسجن لولا ان البلوك للجيش الليبي حيث تشفع أمور من قبيل إن الظابط كان صاحبي وكان زبون دائم على ابو عبد الله "والولد بروحا راقد

ريح".

الحي الصناعي في أول سبها في طريق المطار، على ناصيته مطعم أنيق للفراخ أظن ما زال حتى الآن، وكان مطعم بهوات الحي، أصحاب الورش والصناعية الكبار، أما الأجرية والصبيان والمساعدين عموماً فكانوا يياكلوا عندي في مطعم الورشة الكحيان، في الفطار سندوتشات بيض أو مليت وفي الغدا بطاطس باللحمة.

وأرض الحي الصناعي حمرا، وتبتدي بمطلع أحمر طوبي، وتحس إنها أفريقية بأي شكل من الأشكال، لكن ذوي البشرة السمراء والملاح الأفريقية ليسوا أغلبية في سبها، بالعكس هي ملجأ وموطن عرب الصاد شين الذي لا ليبي ولا عربي أصلاً إنما مواطن مصري اضطرته الظروف للعمل في ليبيا، وقلت لك إن المصريين العاملين في الخارج ثلاث مستويات، النبيه بيسافر أوروبا والمتوسط العراق والخليج والميح خالص، اللي لا مؤهل ولا صنعة بيسافر إلى ليبيا.

ويمكن اللون والنبرة وكمان الحر والشمس القريبة جداً والبلوك جعلني أحس في سبها بنوع من الكسل أو التناحة أو اللامبالاة أو شيء من هذا القبيل، ولا أعرف لماذا كنت أربط بين الكسل والهمود اللي حاصل لي ومنظر قصر الثقافة المهجور، قصر ثقافة فخم مجهز بالمسارح وقاعات العرض الفارهة فعلاً ومحاط بحديقة واسعة، بناه الزعيم لعرض الثقافة والفنون وتحول إلى خرابة، ليس خرابة بالضبط وإنما مرعى للحشاشين، النباتات طالعة الآن على خشبة المسرح، أقصد الوقت بتاعي أنا في أول التسعينات وليس الآن، فمن المؤكد أن قصر الثقافة انتهب بل انفجر تفجيراً، والجنينة التي كانت أحرشاً ترعى فيها الإبل صارت معسكراً لفصيل من الثوار.

المهم أجرت أنا وأبو عبد الله مصنع بلوك في الحي الصناعي، أنا الأول نزلت على مطار سبها وقعدت تقريباً في كرخان خشبي لمبيت عمال المطار، ونزلت من هناك على أبو عبد الله، وابن خالتي اللي نزلت عليه هو اللي عرفني عليه، ولكن أظنه المطعم هو الذي جمع الجميع: أنا وأبو عبد الله ومنسر الصاد شين.

وفي المطعم صاحبت أيضاً وناقشت وتعاركت مع عبد العزيز وعبد السلام، والاثنين مغاربة، عبد العزيز قصير واسمر وبربري، ميكانيكي يفهم في البيجو أكثر من صناعها الفرنسيين، وعبد السلام طويل وأبيض وعربي ولا يقل عن مواطنه في سمكرة السيارات، والاثنين كانوا بيعملوا في الورشة مع مؤجرها هادي التونسي، وعندما جئت للورشة واشتغلت في المطعم كانوا أول زبائني، وكانوا بيشربوا المقطّر، وكل خميس يأجروا أقحاب تشاديات بحمارهم الغامق وطولهم الفارع وعيونهم اللي تندب فيها رصاصة، ويناموا معهم في الورشة.

وأبو عبد الله مرة جاء بواحدة وشغلها، أو هو كان يشغلها وأنا لا أعرف حتى جاء بها لبراقة المصنع، وكانت من غانا، وكان ليها صدر طري جداً ومتهدل، لما تحسسته وهي واقفة مستسلمة أو قل منهكة أمامي، وجدته في ليونة أو قل رهطة البلونة الفاشة، وللأسف كان أول صدر امرأة ألمسه في حياتي، وربما هو من ورثني لوثة الصدور التي جننتني طوال حياتي، ولكني لم أرحمها، كانت أيامها الشيطان متجسداً.. "طب ولو حتى الشيطان يا أخي هل يحق لك طعنه بدون ذنب؟" المهم لم أر فيها الا الشيطان، البنت الساقطة وسألته باستنكار "إنت جيه تعملي إيه هنا؟! فردت بعجرفة واحتقار حقيقي "ووورك انا جي اشتغل وووورك"، ثم أضافت بعربية واضحة وزاجرة أيضا "زيك بالضبط!".

وكنت أنهال على عبد العزيز وعبد السلام وأهديهم إلى طريق الإسلام الصحيح بالخطب والتأنيب والتذكير الدائم الممل المنذر بجهنم التي سيلقون فيها ولما تنضج جلودهم يستبدلون بغيرها. عبد

العزير المتحدث الواصل من فوره صمد فترة يكون الخمر لست حراماً بموجب الآفة الكرامة الة تقول عن الخمر "فاجتنبوه..."، وكان يقول "ربنا لو أراد تركها لقال اتركها بوضوح"، والتشاديات برهن بالجوارى، قس على الجوارى يا أهى، أنا أشترى التشادية فى اللل وأببها فى الصب. لكنهما انهارا لما نقلت للمصنع، الة الة هما انهارا وأنا فجرة، لم أفجر نهائياً طبعاً، تستطيع أن تقول فجرة على مستوى العيشة والإجراءات والمجورة والخوف ولم أفجر على مستوى العقيدة، كنت كما أنا دائماً، الروح البريئة فى الة الشرير، أكرم الخمر لكنى أجاورها وأنقلها وأببها بالليل، والليرة بعشرة دينار.. اعتبرنى مثل آل ياسر، صبرا آل ياسر، ولكن بدون آلام ولا إجبار آل ياسر، عادى وقعت فى منسر، خلاصة مجرمى الصاد شين الذين اخترعهم الزعيم القائد.. لكن هذا موضوع آخر.

خلينا الأول فى المصنع، عبارة عن بركة، أى أوضة بالطوب الأسمنى ومعرشة بزك كان ببولع فى الصيف، ومساحة حوالى نصف فدان فى آخرها حمام، والبكرة فى الوسط. فى الأول كانت بكيرة واحدة ثم اشترى الثانية من اللبناى، والبلوك بعضه منشور فى المنشور وبعضه مرصوص للنقل، وعلى الأجناب الظل والرمل، ثم رصة الأسمن بجانب البركة عدل حتى لا تسرق. وكان ينقل لى الشرشور أو الظل والرمل سواق موريتانى بعربية نقل فىات كيرة، وكان من متعى النادرة فى سبها إنى أركب معاه ونذهب لجلب الشرشور من الكسارة فى أعماق الجبال الحمراء ونرجع غرقانين تمام فى التراب الناعم الأحمر.

لمبادوزا

انطلقنا ف العتمة، الظلام الدامس زى م ببقولوا، مفيش غير البوصلة بين الزيرو والواحد زى م قال آدم، والزودىك ببققز قفز، ومفيش غير صوته شك شك شك، وأنا والزعيم والسواق بنشرب البوخة والحشيش فى أول الزودىك جنب البوصلة والبنجلاديش قاعدين على حافة الزودىك يدعوا ربنا ويقروا قرآن، ومرة أنا أسوق ومرة الزعيم ومرة رشيد يسوق والبنجلاديش مفيش إلا الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.

وطلع الصبح لقينا السماء والطارق، ميه من كل الاتجاهات، والسما زررقة وصافية جداً، والزودىك منطلق، وبعد شوية لقينا الميه اسودت، بنبص لقينا حوالينا درافيل بتتنطط، وأنا والزعيم كنا سكرانين طينة، وشهر أغسطس وكلنا بالشورتات بس وقلنا لرشيد أقف هنتسبح، ووقف ونطينا ف البحر والبنجلاديش ميتين م الرعب.

وطلعنا وع العصر كده لمنا عماير من بعيد ع اليمين، عمارات وبيوت وجناين وقلت لهم لمبادوزا أه، أنا نظرى قوى وأدم قال لنا ستاشر ساعة ف البحر وهتكونوا ف لمبادوزا، وغنينا ع الزودىك وصلنا

وصلنا وصلنا، وخلعنا البوصلة ورمينا التورية والعجوة وكل ما يثبت إننا جايين من ليبيا، وعدل رشيد الزوديك وانطلقنا على لمبادوزا. مشينا بيجي ثلاث ساعات ولقينا لمبادوزا عبارة عن سفينة عملاقة قد ليبيا نفسها، ومتعلق عليها ست مراكب كبيرة، وم معاش لا أكل ولا بوصلة نمشي عليها ولا تورية نكلم حد، وإحنا والبحر.

وقربنا م المركب لقينا مكتوب عليها بالعربي، وطلع عليها ناس اتضح إنهم توانسة، ورشيد قال لهم إحنا لاجئين ورايحين لمبادوزا وتهنا ف البحر، وقالوا خلي الزوديك في ضهر مقدمة المركب واطلع على طول لا تحود شمال ولا يمين هتلاقي نفسك في لمبادوزا، وبسرعة جداً لأن بعد أربع ساعات بالظبط البحر هيهيج. وبعد بيجي ثلاث ساعات لقينا مركب كلها أفارقة أسر وأطفال صغيرين وببشاوورا لنا بالجراكن ويصرخوا بنزين بنزين، لكن م سألناش فيهم، وواحنا بنجري على أقصى سرعة اتخرم الزوديك، وقطعنا جراكن من فوارغ البنزين وخلينا البنجلاديش ينزحوا المية، ومشينا تمن ساعات ومفيش لمبادوزا، تهنا ف البحر، والليل ليل، واتبرجلنا ووقفنا شوية، ومشينا شوية كده وشوية كده ومفيش، وقلت لنفسي لو هاج البحر زي المرة اللي فاتت هاضرب سحبة فيه وأخلص.

الصاد شين

الصاد شين أو أبناء الصحراء الشرقية جنسية اخترعها الزعيم القائد، حقيقة لا خيالاً، تعتبر هي والكتاب الأخضر والنهر الصناعي العظيم من بنات أفكاره، بل إنها الفكرة الوحيدة التي اكتملت وتحققت، فالنهر الصناعي العظيم ما زال لم يجر نهائي أو أنه لم يجر الجريان اللائق بعظمته، ومقولات الكتاب الأخضر تهاوت واحدة تلو الأخرى على صخرة إباء الشعب الليبي العظيم، وهو نفس الإباء الذي أودى بالزعيم نفسه في نهاية المطاف، أما الصاد شين فتمخضت عن سلالة، عرق، نوع من الناس نصف مصريين ونصف ليبيين.

يوسا الروائي العظيم كتب روايته "حفلة التيس" عن ديكتاتور في أمريكا اللاتينية، وعلى غرابة أطواره وعلى مبالغات يوسا في تعظيمه وأسطرته وتبشيعه إلا أنه لا يعدو شيئاً بالنسبة للشخصية الواقعية للزعيم، سواء في حياته عامة أو نهايته الفظيعة. الزعيم خطط أن يكون زعيماً وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره، وصار زعيماً بالفعل وعلى بلد مترامي الأطراف وهو في العشرين من عمره، اتفق على خطته مع زملاء من الفصل في مدرسة سبها الإعدادية، وبناء عليها دخلوا الثانوية العسكرية ثم الجيش ونجحوا في الانقلاب الشهير على الملك إدريس السنوسي، وترعم الجماهيرية العظمى اثنين وأربعين عاماً، وعدد الفخاخ والخوارق والمؤامرات والانقلابات التي اجتازها طوال هذه الفترة جعلته لا يينازع في كونه نبياً، وبالفعل أمن به بعض قومه، وبالإضافة إلى قومه أمن به حتى الأجانب، وهناك سيده إيطالية حسيمة نشرت كتاباً عنه بعنوان "الزعيم رسول الصحراء"، أقرت فيه بأن الزعيم نبي تنزل عليه الوحي كغيره من أنبياء الصحراء على مر التاريخ، هذا فضلاً عن جحافل المؤمنين العرب، وبما أن الأنبياء عادة يقتلون فما هو قتل أخيراً كنبى قتله قومه.

وبغض النظر عن إن نبينا بالذات لم يقتله قومه - فإن نجاح ثورة الفاتح العظيم بهذه السهولة أثبت للزعيم الشاب الثائر الطامح أنه يحكم أرضاً بلا شعب، ثروات طائلة بلا حارس، الفارق الأكبر بين المساحة وعدد السكان، فجنس كل من أراد أن يتجنس من شباب القبائل العربية المصرية الذين سافروا إلى ليبيا النفط والسبعينات للعمل، على اعتبار أنهم أصلاً هجرات قديمة من الغرب الليبي، وكان يطمح أن يستمر، ولكن المعركة التي وقعت بين الزعيم والزعيم المصري أوقفت المشروع، وضمهم الزعيم ضمن من ضم من الصاد شين إلى الجيش الليبي، ثم جمعهم في كتيبة وقيل جيش برمته لحسابه الشخصي.

والحقيقة أن الزعيم كان يؤمن بمصر ويرى فيها الحارس الأشد والحصن المكين، ويرى فيها الشعب الأجدر بزعامته، ويقال أيضاً إن بداية تجنيس الصاد شين ترجع إلى البحث عن سند في مصر، ليس طابور خامس، وإنما صوت قوي متغلغل يدافع عن ليبيا لو هاجمها الأعداء، عن الأرض التي لا حارس لها، ولحسن الحظ أنه موجود ومبرر ومستعد، أولاد العمومة من البدو المصريين، وهم، أي البدو المصريين، طالما ساعدوا أقاربهم من البدو الليبيين أثناء الاحتلال الإيطالي، ومنهم حمد باشا الباسل الذي كان يساعد عمر المختار بالمال والسلاح وحتى الفرسان الشجعان المهرة، ولما استشهد المختار أقام له حفل تأبين كبيرة دعا إليها النخبة السياسية والفنية وحتى الرياضية في القاهرة، ولما ألغتها السلطات محاباة للاحتلال الإيطالي وزع موائدها على الناس.

ويقال إن الزعيم نفسه صاد شين، أو على الأقل أمه من براعصة مصر حسبما جاء في مذكرات أول سفير لمصر في ليبيا بعد ثورة الزعيم، ولكن الزعيم للأسف أخذ "الهدارة"، جنس أقل شباب العرب من حيث التعليم والكفاءة والفقير المدقع في كل حاجة، وهذا السبب الأهم لمأساتهم، ومأساة القائد معهم.

المهم كانت الخطة أن يدعم الزعيم شباب القبائل في مصر، يمنحهم الجنسية الليبية ويمدهم بالمال والفرص والامتيازات حتى يحققوا المكانة التي تسمح لهم بالدفاع عن ليبيا لو ألت النواب، وبدأ التنفيذ في مصر، ولكن السلطات المصرية ضجرت من إغداق الزعيم على فئة بعينها من المصريين، فانتقل التنفيذ إلى ليبيا، وبدأ إغراء الشباب، خصوصاً شباب البدو المصريين، بالسفر إلى ليبيا السبعينات والحصول على الجنسية والعمل والفرص التي لا تحد ولا ترد، أو أن الشباب أنفسهم يندفعون بقوة الفقر وشظف العيش في مصر، وبمجرد نزول الشاب أو الشيخ أو أي بني آدم يقول إنه من قبيلة بدوية في مصر إلى ليبيا يعرف عليه في الحال، أي يأتي شيخ ليبي مسن ويسأله بعض الأسئلة يعرف منها أهله وعشيرته في مصر، ويحصل على الجنسية الليبية بشرط احتفاظه بالجنسية المصرية، على اعتبار أنه سيعمل في ليبيا وستفتح أمامه المجالات ويعود إلى مصر بثروة تمكّنه من الدور المنوط حسب خطة الزعيم، وخصص لهذه العملية مكتباً حكومياً رسمياً اسمه "مكتب الصحراء"، ويقال إنه حرق بعد مقتل الزعيم وترك الصاد شين بلا صادشينهم أو أي شيء يثبت أنهم مواطنين ليبيين لهم كامل الحقوق.

وسافرت جماهير غفيرة من شباب البدو في الفيوم والمنيا وبني سويف ومطروح والأسكندرية طبعاً، ولكن لأنهم سافروا أساساً للعمل، ولأن الذين يسافرون إلى الخارج من المصريين ينقسمون إلى ثلاث فئات، ولأنهم من الفئة الثالثة، العمال والفواعلية العاديين، وقفوا في الخط، أقصد معظمهم يعني، وقفوا في الخط، لم ينطلقوا في المجالات المهيئة لجمع المال للعودة السريعة إلى مصر، وأغلبهم لم يشتغلوا ولم ينفعوا في أي شيء اشتغلوا فيه... الخلاصة أنهم وقعوا في رقبة الزعيم فقرر أن يشربهم، يستأثر بهم لمهامه الخاصة، النابهون المؤكد أنهم نادرون أخذ منهم حرسه

الخاص ويده التي يبطش بها عندما يعن له أن يبطش، والباقي ضمه إلى الجيش، لا ليس إلى الجيش وإنما وزعهم في كتيبة أو فيلق خاص، وأرسل نخبة منهم في دورة عسكرية تدريبية في إيطاليا لتعلم حرب الشوارع ونفذ بهم كل العمليات الثورية التي نفذها حول العالم، ومد بهم كل الجمعيات والمنظمات الثورية التي كان يراها حول العالم، وأرسلهم لمناصرة الثوار والمتمردين في الفلبين وأيرلندا وإسبانيا وأمريكا اللاتينية، وحرر بهم قرية أوزو من القوات التشادية المسنودة بالجيش الفرنسي المرابط في أفريقيا.

وجرجارش كان في كتيبة أو سرية أرسلها الزعيم لمناصرة صديقه الزعيم الأوغندي عيدي أمين على المتمردين في أوغندا، وبينما جرجارش وزملاؤه محلقين بالطائرة على مشارف أوغندا جاءت الأخبار بأن بالمتمردين أطاحوا بعيدي أمين وأنه هرب خارج البلاد، واضطرت الطائرة للنزول في مطار الخرطوم بشبه معجزة، ومن يومها أعلن جرجارش أنه جرجارش، ومن يومها طلعت عليه جرجارش أي مناخوليا أو الخارج من مستشفى المجانين في اللهجة الليبية.

شيشيليا

فجأة، قبل المغرب بحوالي نص ساعة لقينا طيارة هيلوكبتر كبيرة وقفت فوقينا عشر دقائق، ونادينا عليها كثير وبكل اللغات اللي بيعرفها رشيد لكنها سابتنا، وطرنا وراها، وم اللخمة نسينا البنزين والموتور خلص بنزين ودخن، وطفينا وحطينا بنزين ودور ما درش، باظ يا معلم. والبحر اللي كان زي الحصيرة بدأ يتماوج، وفكينا الموتور عشان نصلحه، وواحا بنعدل فيه على حرف الزوديك فلت من إيدينا واتزحلق ف البحر، راح. وبصينا عليه وهو بيتقلب ف الأعماق، واللي بيعيط واللي بيصوت واللي بيتشاهد على روحه، وفجأة لقينا في وشنا عدل بلوه سودا على ضهرها طيارتين هيلوكبتر وبيجي سبع مدافع كبيرة وبتقلب لنا نور كبير جداً، اتلفتنا لقينا واحدة تانية وتالته وعملوا علينا دايرة، كان بينا وبينهم مسافة، واتكلموا الأول إنجليزي وبعدين إيطالي وبعدين عربي في مكرفون، وقالوا إحنا عارفين إنكم لاجئين واهدوا وسلّموا نفسكم لأن البحر هيهيج بعد ربع ساعة وهتغرقوا. وكل سفينة طلعت باشبور كبير من الصابون، فصرخنا، خفنا يقتلونا، فقال الصوت العربي م تخافوش دا مطهر، وبعد خمس دقائق أول واحدة ف السفن لفت وهي مكانها ومشيت وبعدها التانيين اختفوا فجأة ف البحر، وجه مركب صغير، بصينا عليه لقينا علم مالطة، فرفضنا النزول، وقلنا إحنا عايزين إيطاليا مش مالطة، مالطة هترجعنا لمصر رسمي لأنها معاها اتفاقية مع مصر لرد الناس الهربانين وإيطاليا وأوروبا كلها لا، وبقينا نصرخ إيطاليا بيس مالطة نو. فقال الصوت

هي مركب مالطية بس تبع إيطاليا وانتو دلوقت ف المياه الإقليمية الإيطالية، ورفضنا بس م كانش فيه حل إلا الركوب معاهم، الزوديك نفسه بدأ يتقل بالمية، وبمجرد م ركبنا معاهم هاج البحر، وبقي الموج زي الجبل، ووصلنا الصليب الأحمر في لمبادوزا.

وعلى م نزولنا م المركب كل واحد استلمه راجلين وبنيت نضاف ولايسين بدل بتلمع وكمامات وجونتا وكأنهم هيمسكوا عقارب، واقلعوا هدومكم وقلعنا وبقينا بالسراويل، ودخلونا واحد واحد على مكتب قاعد عليه دكتور ودكتورة شعرها أصفر وأمورة، ولما تخش تقول لك قرب وتشد سروالك لما يقع ع الأرض وتقلب ف بتاعك وبيضانك وتحسس على جسمك كله لو فيه كسر والملا تعويرة، وتقول لك ارفع سروالك، وتخش ع الحمام يدعوك ببودرة تطهير وتستحمي، ويسلموك ترنج وشبشب كوتش وبنطلون وتي شيرت وبطانية ومخدة وملاية ومرتبة ويودوك ع السرير بتاعك ف العنبر. وكان معنا واحد سوداني طويل، وعلى م الدكتورة شدت سرواله وبصت على بتاعه قالت وااا، معاه حاجة كده، حاجة سودة قد كده، واتكلمت مع زميلها، أتاري فيه واحدة زميلتهم بتدور على واحد بتاعه كبير ونادوها وجت وكانت جامدة، جتة يعني، وبصت لبتاع السودانى وقالت وااااا، وطبببت على كتفه وخدته الحمام قدام عيننا عادي جداً.

وأنا لحد دلوقت كنت خايف لتكون مش إيطاليا، أصل بالنسبة ليا كنت عيل غريب الأوصاف ولو عدى إيطاليا الأمور هتتغير، وهيبقى معاه فلوس والكل هيحترمه، إيطاليا هي الأمل الوحيد إنني أرجع مليونير لمصر. ودخلنا العنابر ف الصليب ورتبت السرير ورحت أتشطف م البودرة، وأنا واقف ف الصف مستنني دوري بصيت للحمام الثاني لقيت واحد أعرفه من الفيوم اسمه أحمد أبو ناعسة وظمني إنني ف إيطاليا.

وقعدنا ف صليب لمبادوزا أسبوعين، واحنا بنعد أنا والزعيم للهرب، ومشينا نبص ع السور، ولقينا واحد م الحرس الإيطالي بيتمشى بره، ونده علينا بالعربي وولعلنا سجاير، وقال لنا إنه عاش ف إسكندرية ثلاث سنين، وفهمنا إنه م ينفعش نهرب من هنا، "عايزين تهربوا اهربوا في شيشيليا"، لمبادوزا جزيرة صغيرة مفيهاش جنس مخلوق غير الطليان، كل اللي فيها طليان وكلهم حكومة وجيش وحرس حدود لأنها أقرب جزيرة للعرب، هي باختصار منطقة عسكرية فيها مطار صغير والباقي معسكر، والأهم من كل ده إنها فى وسط البحر وبينها وبين شيشيليا أقرب أرض ليها مسافة كبيرة.

وف يوم الصبح، ندهوا أسماءنا ونقلونا بالطيارة لشيشيليا اللي فيها الصليب الأصلي اللي المفروض نهرب منه ونركب القطر لميلانو، واتفقت أنا ومحمد الزعيم على الهرب بمجرد م نوصل وقبل م نتبصم ونتصور لأنه لو مسكوك في إيطاليا وإنه متصور هيعرفوا إنك جي منين وهيرجعوك الصليب الأحمر، ومنه لبلدك عدل.

ونزلنا م الطيارة ف مكان واسع عليه سور في وسط الغابة، وفيه كل الجنسيات اللي تخطر على بالك، ودخلوا كل ثلاثة ف كراكون عبارة عن أوضة متنقلة فيها ثلاث سراير وحمام، وقال لك الغدا وبعد الغدا هتتصوروا وتتبصموا وتتسلوا. إحنا ركبنا العصر ف الطيارة ووصلنا قبل المغرب، ورحنا اتغدينا، وحاولنا نتهرب م البصمة لكنهم خدونا، ودخلوني على واحدة تونسية اسمها ليلي وسألتني عن اسمي وجنسياتي ورديت عليها باللهجة البدوي وقلت لها "اسمي آدم عبد الله صفيط م العراق وباتي وأمى وخوي اتقتلوا ف الحرب وأختي منعرفهاش وين"، وكانت فيه ضربة موسى قديمة ف بطني وريتها لها كآثر من آثار الحرب، وبصت فيها بدون أي تعاطف وقالت لي "أنا عارفة إنك مش م العراق وأسرتك م تقتلتش ف الحرب وإنما أنت مشرقى، من عرب مصر بس أنا هنعديك"، وكتبت

إنني عراقي وعدتني، ولما خرجت من عندها قابلت واحد نيجيري صاحبي كان معايا ف تخزين ليبيا، وسلم عليا بحرارة وقلت له أنا عايز أهرب دلوقت، ومن حظي كان شغال ف الحكاية دي، وبيأخذ ع الراس خمسين يورو، وقال لي "بعد المغرب، ولما تهرب، وتنط برا السور، تاخذ عواميد الضغط العالي ولما تتفرع شمال ويمين خد اليمين وم تسيبوش وهو هيوصلك للقطر بتاع ميلانو". ورحت الحمام أغسل إيدي م البصمة وقابلت الزعيم هناك وقلت له يلا نهرب دلوقت، واتفقنا إن أنا هاروح أولع ف الكراكون اللي الناحية الثانية عشان نلهي الحرس وهو هيروح يدي الفلوس للنيجيري اللي هيساعدنا، وعلى م الدخان يعلى م الكراكون يرموا المرتبة اللي هنط عليها على السلك ونهرب، ويادوبني ولعت ف الكراكون ودخلت الحمام على م النار تولع سمعت خرّوشة ناحية السور فرجعت جري وأنا ألمح ضهر محمد الزعيم وهو ع المرتبة بيتقلب بره السور، فجرّيت وأنا باندّه يا زعيم يا زعيم، ووانا بجري فرقع الكراكون، ووصلت للنيجيري جنب السور وسندت عليه، السلك طوله أربعة متر وفوقيه سك شائك عليه المرتبة، وطلعت عليه ورميت نفسي ع المرتبة على صدري وאתقلت فنزلت بره على رجليا ف غيط مزروعة شامي مسقية، والسرينة ضربت، وتميت اجري وأندّه ع الزعيم يا زعيم يا زعيم لكن الزعيم راح.

المقَطَّر

في عز بحث واستعادة مادة هذا الكتاب جاء خبر أبو عبد الله رفيق العمل والنضال في ليبيا، عرفته صدفة من سعيد جرجارش في البلد، قال وجدوه مخنوقًا مكتفًا بمزرعته بأم الأرانب جنوب سبها، والحقيقة إنني خفت وضهري نمل وغطاني العرق لدرجة إن الرجل استغرب، ومر علي شريط مرعب من الليالي التي كان يمكن أن نقتل فيها معًا بنفس الطريقة وفي نفس المكان. مزرعة أم الأرانب هذه هي نفسها المزرعة التي كنا نصنع فيها المقطر ونهربه إلى سبها ونبيعه بالليتر في مصنع البلوك... نبيعه؟!!

لا، يبيعه أبو عبد الله فقط، أنا للأسف لم أبع شيئًا، كنت أقوم بالمخاطرة كلها، أصنع المقطر وأهربه وأكيسه وأسلمه للزباين ولكني رفضت بيعه بعقيدة صلبة لا تلين.

الخمور ممنوعة في ليبيا، محرمة أكثر من المخدرات، عقوبتها تأبيدة ويمكن إعدام، ولكن السلطات هناك تغض الطرف عن "المقَطَّر"، لا تحلله وإنما تصهين عليه ولا تتحرك ضد المشتغلين به إلا لو وردت ضدّهم شكوى من أحد المواطنين، والحقيقة أن هذا كان دأبها مع الخارجين على القانون جميعًا، أما إذا كان الخارج من آل الزعيم فلا تنفع شكوى ولا يحزنون.

والمقَطَّر مشروب شعبي محلي يعتبر المنتج الوحيد الذي كانت تنتجه الجماهيرية العظمى مائة في

المائة، ويصنع من السكر والخميرة البيرة وله تأثير فظيع. شوال سكر خمسين كيلو وخمسة كيلو خميرة بيرة على برميل سعة مائة ليتر يعطيك ما بين ستين وسبعين ليتر أو ليتر كما يقولون، والليتر الواحد تطيح بالفيل. صديقي محمد الحطمانى المدرس الذي كان مصاباً برهاب الشرطة والأمن، والذي كان يموت في جلده لو شاف عسكري صاد شين كان يتحول إلى مارد بليتر واحد، ويتسلط عليه شىء واحد هو التنكيل بالشرطة، "دين أم الشرطة قسما بالله أنيك الشرطة" هكذا يظل يصرخ حتى يصرع ويغيب عن الوعي، ومرة اقتحم مركز الشرطة نفسه بالسيارة وهو سكران طينة.

وأبو عبد الله يعتبر من أساطين بيعة في سبها كلها، ونظراً لأنني كنت شريكه في المصنع وألزمه طوال الوقت، كنت أساعده، ونظراً لأن أبو عبد الله كان رجلاً عجوزاً في الستين من عمره وكنت شاباً عفاً في العشرين كنت أقوم بالعملية كلها.

في البداية كنت أستلم الطلبة جاهزة ومعبأة في الجراكن كل خميس من أنور الرمحي في حي الطيورى شمال سبها، وكانت في العادة ثلاثة جراكن من سعة العشرين ليتر، وكان أنور رمحي أصلاً من الفيوم وأصلع وتخين وحذر وخواف جداً، وحاصل على الصاد شين في السبعينات ويعتبر جندياً في الجيش الليبي، وفي كل مرة كان يخترع طريقة للتسليم تنجيه تماماً وتضيعني لو طبت الشرطة، مرة يركنهم لي في الشارع ويقف بعيداً شامخاً بوجهه وكأنه لا يعرفني، ومرة يرصهم أمام شقته ويقفل الباب عادي وكأنه شخص آخر بل كاره ومتمبرئ من العملية كلها، وفي النهاية استراح لطريقة التسليم عبر الشباك، وكان يطرطهم لي واحداً واحداً من شبك شقته في الدور الرابع، ولا يأبه بذهول الناظرين من الجيران والمارة، وكنت ألتقفهم وأنا ميت في جلدي ليس من الشرطة فقط وإنما من الناس الذين كانوا يلتفون حولنا ينظرون بمنتهى الدهشة والاستغراب.

وكم استرحت جداً لما أبو عبد الله مل من خوف أنور وعدم انتظامه في تسليم الطلبة في الوقت المحدد، وقرر التصنيع بنفسه في مزرعة أم الأرناب، وهي لم تكن بعيدة عليه، صاحبها الرسمي جرجارش والفعلى خويطر كانا من زبائنه ومموليه حشيشاً ومقطراً ونسواناً لو أحب وعادة يحب ويشغل حتى الصباح، وكل ليلة يشربون وأحياناً ي.. (لا بلاش دي) عنده في بركة المصنع، وآخر الليل يهجموا بالسلاح على مزرعة من المزارع الشغالة في المقطر ويخطفوا جركنين تلاته يسدوا بهم ما شربوه عند أبو عبد الله، وأبو عبد الله بدأ مسيرته مع المقطر بالتقطير ولم يشتغل بالبيع إلا بعد أن تشاركتنا في مصنع البلوك، وكان يمر علي كل أربعاء بسيارة بيجو قيطون أزرق داكن (ربع نقل) وبها أجولة السكر والخميرة البيرة وأكل وشرب يكفي يومين، وننزل على مزرعة أم الأرناب.

وهي عبارة عن خمسة وعشرين فداناً محاطة بسور وبها غرفتان وحمام على الأسمنت، واحدة للنوم والثانية لتصنيع المقطر، وبمجرد وصولنا كنا نأكل لقمة ونبدأ العمل بجدية وهمة وهممة تصنيع الخمر في بلد تحرمه، ننظف البرميل جيداً حتى يبرق، وننصبه على موقد كبير وننصبه بالماء، ونفرع فيه شوال سكر خمسين كيلو وبمقدار عشرة جنيهاً خميرة بيرة، ويقلب المحلول بمغرفة عبارة عن كوريك صغير، ويزود بالماء، ولما يدوب السكر والخميرة ويبدأ المحلول في الغليان يبرشم البرميل بغطاء بلاستيكي طالع منه ماسورة تمر تحت حنفية تقطر البخار المكثف في الجركن قطرة قطرة. تقطير البرميل الكبير، الذي يعطي من ثلاثة إلى أربعة جراكن سعة عشرين ليتر، على نار هادئة جداً ممكن أن يستغرق من نصف يوم إلى يوم كامل، وبمجرد انتهاء العملية تنقل الجراكن بسرعة إلى العربية ونطير على سبها.. لا لا نظير بل نزحف زحفاً.

أنا أقود السيارة وأبو عبد الله جانبي بالشنة الحمراء كأى ليبي على سبيل التمويه والجراكن عريانة بتتقلق في العربية من ورا باعتبارها جراكن ماء مع أن المقطر أبيض، وكمان اتضح أن هذه

الطريقة الوحيدة للمهربين الليبيين، لأنهم في الحقيقة لم يكونوا مهربين مهربين، هم عرب نهايين، "والأثيل إن الشنة الحمرا اللي بزر أسود مشرشب، الشنة اللي كان بيلبسها عمي العمدة لما يخطب خطبة العيد، ميبلبسهاش الليبيين من زمان وإنما العرب المصريين بس، وخصوصا اللي شغالين ف الحاجات دي"، لكننا كنا نمر سالمين على ثلاثة كمائن شرطة مدججين بالسلاح حتى نصل إلى مصنع البلوك ونخفيهم بسرعة في الحمام، وأقعد أنا وأبو عبد الله في البراكة في انتظار الزباين. مرة كان معانا محمد خويطر، "الجحصي اللي خطف زوجة الطبيب اليوغسلافي"، وكنا في سيارته التويوتا اللاندكروزر المدرعة ولما شاف براميل الأمن الحمراء تسد مدخل سبها قال بغطرسة "كنهم لمصخين، دايرين شرطة؟!، توا انيك الشرطة" وداس بنزين وقفز بالسيارة للفردة الثانية من الطريق ومشى عكسي بكل ثقة وجبروت أمام عيونهم.

والحقيقة أن منظر البراكة نفسه كان يناسب صومعة أو بار في أرض قاحلة، حجرة وحيدة على قمة ربوة صغيرة حمراء، وسرعان ما تحولت أو حولها أبو عبد الله للتمويه إلى كعبة كل العرب المصريين الفقراء القادمين من مركزنا مركز أطسا الفيوم للعمل في ليبيا، "يوماً على الله فيه ناس جاين وناس رايعين وناس بايتين متنشرين جوه البراكة وحواليها من كل ناحية".

وفي النهار البراكة براكة، براكة مصنع البلوك، وأنا واللي شغالين معايا في البلوك عايشين بينها وبين البلوك المنتشر قدامها، وإن جاء زيون للبلوك، إن جاء، نتفق فيها، وفي الليل نشاط أبو عبد الله. وأبو عبد الله بغض النظر عن مأساتي الشخصية معه كان شخصية جبارة، أمني ومن بني سويف لكن شخصية جبارة، ضرب تلتاشر جواز لولاده وقرايبه في مصر على اعتبار إنهم ليبيين عاندين وصرف لهم جميعاً المنحة السنوية التي كان يخصصها الزعيم لشعبه ومواطنيه، وظل يقبضها ويرسلها إلى مصر.

وأبو عبد الله كان أسمر وأصلع وبشنب تقيل تحس إنه يتدلل لما يتكلم، وصاد شين رمحي من بني سويف، ونشاطه يبدأ بالتوزيع من العصر حتى بعد المغرب، الليتر يعبأ في الكيس من الجركن في الحمام ويتسلم للزباين المارين في البراكة، وكان أغلبهم شباب ليبي سارق له حاجة لزوم ليتر المقطر، وفي الليل غرزة، اللي حشيش حشيش والخمرة خمرة واللي الاتنين الاتنين، ومعاهم أنا مبشربش لسبب العقيدة وأبو عبد الله مبشربش لأمر تخص الشغل، وكان أحياناً يضطر يمرر غانيات على الورش ويستناهم لما يخلصوا ويقبض، وأحياناً يرجع بواحدة ع البراكة، وفي هذه الحالة كان شنبه يتدلل فعلاً، وينام، مثل القليل، يومين.

إنه كان طولي بالظبط وادّاني بنطلون جينز وتي شيرت وجاكت وجزمة وشراب من عنده واستحميت وبقيت تمام، وقال لي اسمع أنا هاطلع لك تذكرة ميلانو وهاركبك القطر، بس الأول لازم تخلي حد من قرابيك أو معارفك هناك يحول لي خمسميت يورو، فقلت له للأسف مليش حد وم عرفش حد، قال لي كيف يا راجل مش هينفع، قلت له معلش، وكده إنت تشكر ع اللبس وع الدش وعلى كل حاجة، وإحنا عرب وإخوة وثوابك كبير، ولو سمحت وصلني بس للمحطة اللي بتوصل ميلانو.

مجردة التهريب

هذه مجردة التهريب من مصر إلى ليبيا قبل الزعيم او في عهده .. لا اذكر بالظبط المهم: إذا كان لكل رواية أغنية فهذه أغنية الصاد شين:

يا مرحب يا بو دور خصيب = اسمع مني قول بترتيب
نقوله عن شغل التهريب = اللي ثلثينهم غلبانين
اللي ثلثينهم ناس غلابة = دايرين أرواحهم هرابا
وهم ديمه يالا الخرابا = حتى أن باتو ممسوكين
ونا بيدي منهم يا هيه = وكان عندي ستين جنيه
احترت نعفش نشري إيه = مشيت بيهن للخضارين
مشينا لخضارة السلوم = وجينا لبو واقى المفهوم
وخذنا منه كوس وثوم = وقول حملنا كروزتين
نا قلت لصاحب الكروسة = واجعلها تبقى محروسه
وبو واقى يحسب في فلوسه = في قيس ثلاثه وخمسين
وحملنا يا الأخت حمير = ويا ما شلنا شي كثير
وقلنا اللي حيصير يصير = ومن نقب الطابيه ناويين
ومن نقب الطابيه عدينا = لاضابط لا عبد لقينا
تما متقاوي داعينا = لكن لاقانا الكمين
قلت له يا أفندي عديني = تسلم ما تطلعش عيني
صاحبني خليك قريني = نحنا من هانا رادين

قال الرشوه ما ناخذوها = مبسوطين وما نريدوها
والعفشه نحنا نودوها = واللي فالمكتب حرين
نقول اسمعني يا شاويش = ارحم ولديم أن شا الله تعيش
اعمل معروف بلا تيكيش = انتو أكثركم ناس حلويين
يقول لي عدي يا جربوع = بلاش تشد حذاي النوع
أن شا الله تقعد مية أسبوع = العفشه ما احناشي ساييين
نقول تأكد في وبص = انا ريتك في صلب النص
متفتت مني جنبه ونص = تريد تنكرهن تمشي وين
قال والله ما عمري ريتك = دي أول مره لاقيتك
لكن لازم نخرب بيتك = منحاش احنا تفتافين
كيف لقيته في تياره = تحيته وناولته سجاره
قلت امكن يعدل ف اخباره = ويروف علينا يا عين
ياما يا الأخت ترجينا = ويش ندير تحم فينا
تما ع الطاييه مودينا = واحنا قدامه ماشيين
وجينا للطاييه يا اخوان = مساكين جميع العربان
ولكن جانا بو عرفان = وقال لهم جبتوه منين
وقالو له نحنا جبتاهم = وانت تتصرف وياهم
ساعدهم عشان ضناهم = باين عالم غلبانين
قال والله ما نساعدهم = هيتو لي السوط ونجلدهم
وانت يا محمد قيدهم = أساميهم مين ومين
تما يكتب ف أسامينا = عبد مظلم عينه شينا
ويمل سؤالات علينا = ويقول انتو وين ساكين
نقول له يا افندي مضبوط = عزائم من كنجي مربوط
اللي يجينا يبقي مبسوط = ولكن نحنا شقيانين
قال لي يعني م العامريه = قت له من غربيه شويه
تما بعينه يخزر فيه = ويقول لي نا شفتك فين
قلت انظر وين مراعييني = نا كل العالم عارفيني
بس انتو طلعتو عيني = ديما معايا منقرضين
قال لي اساع تخش معايا = لبوعرفان احكي الحكايه
شغلتكم دي موش جنايه = انتو منها كنكم خايفين
وجابونا لعبد الحميد = نريده يرخي تم يزيد
وقال حطو فيده حديد = ودير له محضر من صورتين
نقول له يا عبد الحميد = يا بو عرفان أن شا الله تزيد
اسمع تخريفي نا واكيد = هذا حواشي للوشاشين
قال لي موش سامع الأخبار = اللي ف الراديو ليل نهار
إحنا بنحارب ف الكفار = انت بتهرب ف التموين
إحنا بنحارب في اليهود = اللي شرقينا ع الحدود
الله لا يجيبهم لنا جود = انت ما بتقراش جرانين
نقول له يا افندي جاهل = ولاحرف ولا خط نحل
واسمي جويده بو الحول = وشاعر والعالم عارفين
عليه تنشد بو الزوام = اللي كله ذوق ونظام
سليم وما يرضا الحرام = ودوم يفك المنضامين

ويا حضرة لاوي الكيمار = بجاهك ياربي الغفار
تتوب علينا من ها الكار = اللي ودانا شور النار
علم ورباية ناس اميار
=====

القطر

وبيت عند السوداني، وع الساعة خمسة الصبح ركبني وراه ع الفيزيا بتاعته ووصلني لحد المحطة، وكنت ناوي أركب القطر وأزوغ م الكمسري بأي طريقة، ولما دخلت المحطة لقيت أكثر من أربعين مصري هربانين زيي م الصليب ومستنيين قطر ميلانو زي م هما بالطين والرهريط اللي شالوه م الغابة، وكمان قاعدين فوق بعض أكنهم مظرورين أو مقبوض عليهم فعلاً وبيصوا كلهم ع الناحية اللي جي منها القطر، رحلت لهم وقلت لهم أنا مصري زيكم وقعدتكم دي هتجيب لنا الحكومة دلوقت، ولسه باقول لهم لازم تتفرقوا وم تتجمعوش كده لقيت واحد طلّع دماغه من باب المحطة وبص علينا ودخلها تاني، قلت لهم ده هيجيب الحكومة، وسيبتهم ومشيت ناحية نهاية المحطة ورفعتم دماغي فوق السور فلقيت عربيتين بوليس داخلين ع المحطة، فكرت أرجع لهم أحذرهم لكن خفت ومشيت عادي بيجي أربع خطوات وقفزت من ع السور بره المحطة.

وجريت ف الشارع لحد م لقيت ترعه زي اللي كنت هاموت فيها ف الغابة، عرضها حوالي أربعة متر وعمقها حوالي تلاته وف النص ميه خفيفة والأربعة متر عبارة عن طمي طالع فيه بوص فارسي كثيف جداً و ما يقلش عن تلاتة متر، دخلت أتدس فيه، ووأنا بافرق فيه وأعدل مكان أقعد فيه لحد ما تمشي الحكومة اللي قبضت ع المصريين فعلاً وبدأت تركب فيهم ف العربيتين - سمعت ناس بيواصلوا بالمصري جنبي ف وسط البوص، "الأ خمسمية كثير لأ تلتمية بس"، وأنا أفرق البوص ورحت رايح ع الصوت، قال مين مين قلت لهم مصري مصري، وجيت داخل عليهم لقيتهم عيلين من المنوفية ومعاهم عيلين م السودان وبيتواصلوا على أجرة تذكرة ميلانو، السودانيين بيقلوا خمسمية والمصريين بيقلوا تلتمية بس، وأنا على طول لقيتها فرصة ودخلت، وخذت المصريين على جنب وأقنعتهم بالخمسمية لكل واحد، وخذت السودانيين على جنب وأقنعتهم ياخدوا ألف ع التلات روس، واتفقنا، وراحو جابوا لنا أكل وبيتنا ف الترة، والساعة خمسة جه السودانيين وخذوا الألف يورو وجابوا لنا التذاكر، ودخلنا المحطة، ولحمت واحد شكله مغربي بيدخل محمد الزعيم العربية الثانية من القطر. وركبنا القطر، وجه الكمسري وتذاكر فبقى بيرطم وينونو وترفز ووشه احمر على حماره، واحنا مش فاهمين حاجة لحد م جه المغربي اللي ركب الزعيم "تذاكركم مش القطر دا، دا قطر ميلانو اللي م بيقفش إلا ف المحافظات، المدن الكبرى، يطلع من شيشيليا على باليرمو على

نابولي على تتانيا على روما على ميلانو، وتذاكركم دي تمنها يورو واحد وتركب محطة واحدة داخل شيشييا، وكمان مش ف القطر ده".
وطبعاً السودانين مافيش، فص ملح وداب ف المحطة، وراحت الألف يورو والقطر طلع وقعدنا كلنا ع الحميد المجيد، واعرنا ع المغربي اللي ركب الزعيم وعرف مأساتنا وطلع إنه بيهرب هو الثاني وخذنا معاه لشقته، ولقيت عنده قرابب الزعيم اللي سابوني باحرق الكراكون وهربوا معاه م الصليب، وقال لك الزعيم راحل ميلانو عشان بيعت ألف وخمسميت يورو للمغربي عشان يركبهم، وهما قاعدين رهينة عند المغربي لحد م بيعتهم، وبيتصلوا ع الزعيم والزعيم م بيردش، وقُلت لهم ولا هيرد ولا هيسأل، أنا صاحبه وعارفه تمام.
والعيلين المنايفة اللي معايا اتصلوا بقرايبهم في ميلانو وبعنوا للمغربي ألف يورو مش عشان يركبهم القطر، وإنما عشان يخليهم عنده لحد م توصل العربية الملاكى الفخمة اللي وصلت وخذتهم، وشوية وأهل العيلين بتوع السريرة بعنوا لهم ألف يورو، وبقيت أنا، لا فلوس ولا معارف، والمغربي قال لي وانت يا ابو جليل فقلت له أنا مفيش وتشكر ع الأكل والضيافة ووصلني للمحطة زي م جبنتي.

بلبل الصحراء

المطرب أصلاً من عرب الموالك في العامرية بالإسكندرية، وسافر إلى ليبيا سلكاوي وهو صبي في الخامسة عشرة من عمره، وعلى طول عرفوا عليه على قبيلة الموالك في ليبيا وحصل على بطاقة الصاد شين واشتغل في شركة للبناء، وفي يوم جاء ضابط أمن دولة وطلب أسماء كل العاملين الصاد شين في الشركة، كانوا حوالي أربعين غير المطرب والشوباش البدوي أبو قرقور وصالح بو حبونة، وتاني يوم لموهم ورحلوهم على الجيش، لكن المطرب هرب. كان أيامها لا يعرف من الغناء إلا مسامرة زملائه العمال على السمسمة وعاد إلى مصر، ليبدأ مسيرته في الغناء حتى اتغير الوضع، وصار المطرب الشهير عوض بو عبد القادر، أشهر مطربي البدو في مصر وليبيا، وفي يوم أو قل ليلة مات في حادث وهو عائد من حفل ذكرى الفاتح العظيم في حضور الزعيم القائد بنفسه، البعض يقول إنها صدفة والبعض يقول إنه حادث مدبر، دعتة كساحة في المرسيديس البينز التي أهداها له الزعيم وهو يقودها راجعاً في الفجر إلى مصر بعد أن أحيا الحفل اللي غنى فيه للزعيم وليبيا وللفاتح من سبتمبر أغنيته الشهيرة:

انتى عظمى باللي سماك
انتى عظمى بكتاب اخضر

وبمعمر

وجيشك والشعب الثاير
ونين هج راعي البقر يريد فناك
لكن عون الله معاك
انتي عظمى باللي سماك

عوض المالكي مطرب بدوي في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان يؤلف ويلحن ويغني، وكان له صوت كالرعد، وكان يتميز بالوسامة والشياكة والأدب الجم، وكان يؤلف ويلحن لنفسه، ومحبوب جداً من شباب البدو في مصر وليبيا، كنا نراه عبد الحليم حافظ الصحراء، وكنت أنا وجيلي كله نضرب أكباد الإبل لحضور حفلاته في المنطقة وفي الفيوم كلها، وكان يقام له مسرح خمس أو ست مقطورات في قلب الصحراء، وكان الناس يأتون بالآلاف المؤلفة حاملين مسجلات العراق التي كانت موضة في هذا الوقت.

وعوض المالكي مواليد الإسكندرية، المعمورة، "ماشي في شط المعمورة قابلتني بنت صغيرة تميم ماشي على مشيتا ونسيت اني عوض بو قدورة" كما تقول إحدى أغانيه، وجاء ليبييا متلبداً أو متهرباً على حمار في قلب الصحراء الشرقية وهو في الخامسة عشرة من عمره، وفي عز الصدام المسلح بين الزعيم والنظام المصري مر من الحدود باعتباره بدوي مالكي وبيتكلم اللهجة البدوية أتقن من الليبيين - عرفوا عليه بسرعة وسلموه بطاقة الصاد شين من غير اختبار تقريباً، واشتغل فترة في الرعي والزراعة في أحراش سرت، وكان يعزف على المجرونة ويغني كل أنواع الغناء البدوي؛ الشتيوة والعلم والغناوة وقول الاجواد، ويتألق في غناوة العلم، ولكن يبدو أن كلماته ونغماته زهبت أدراج الرياح في الصحراء القاحلة فرجع للمعبه، وصار نجم الغناء في أفراح القبائل العربية من الإسكندرية حتى أسوان، وأصدر عشرات الأشرطة، وجلجل صوته القوي الطيع مع أي لهجة وأي إيقاع، وكون فرقة بدوية محترفة، وذاع صيته وكان يطور في الأغنية البدوية ويلونها بألحان وآلات جديدة لم تعرفها قبله كالعود والكمان لأول مرة في تاريخ الأغنية البدوية الغربية في مصر، وكان يطبع شرائطه في الفيوم التي كانت مركز صناعة الأغنية البدوية في مصر أيام الكاسيت، وأصدر العشرات من الشرائط التي راجت رواجاً كبيراً بين شباب القبائل العربية في مصر وفي ليبيا، ويكاد أن يكون مطربهم الشعبي المفضل، على الأقل المطرب المفضل والمطرب الدائم في احتفالات الجماهيرية الليبية بذكرى ثورة الفاتح العظيم.

وهذه السنة جاء عوض المالكي ليبييا لمناسبتين - عيد ثورة الفاتح ومناسبة تحطيم الزعيم القذافي لأول مرة في التاريخ بوابة الحدود بين مصر وليبيا، ركب البلدوزر بنفسه وأزال البوابات وهو يهتف "فلتسقط الحدود الاستعمارية المقيدة للإنسان"، وتقريباً وقتها كمان كانت الطائرات الأمريكية قذفت بيت القذافي نفسه بالقنابل والصواريخ، وأيامها شاع بين الإخوة الليبيين بما فيهم العارفين من أصحابي أن القذافي تقريباً أُسري به، ظلته محفة ربانية حمته من قنابل الأمريكان، وعوض المالكي غنى له وليبيا كلها:

أول اسم جماهيرية قدام العالم هو كلا

تاني اسم انك ليبييا شانك فوق الناس تعلا

تالت اسم اشتريكية شعبك ما يرضى بالذلا

وفي الليل سرت النمائم أن عوض شرب مع بعض رفاقه في الحفل، وتقريباً خترف الأغنية وتندر على شخص الزعيم نفسه، المهم إنه الصبح، 15 سبتمبر سنة 1991، اتدعك تحت كساحة.

میلانو

ف الصبح خدنا المغربي للمحطة وقطع لهم التذاكر، وأنا بابص للقطر بادور ع المكان اللي هازوغ
فيه نده لي واداني تذكرة وقال لي هي بمية وستين يورو عايز تردها ردها مش عايز تردها الله
يسامحك، فشهقت م الفرحة وقلت له لا والله هنردها وحضنته ودموعي نزلت وركبت القطر.

وسافرنا إحنا الثلاثة، وقعدنا ننتظر الميكروفون ينطق كلمة ميلانو طول الطريق، ووصلنا الساعة 11 مساءً، ومثلنا الدور زي م قالوا لنا. خرجنا م المحطة عادي خالص وبنهرج ونضحك مع بعض وكأنا أصحاب بلد جايين من رحلة، لكنني كنت مرعوب وحاسس إن كل المحطة بتبص علينا، ولقينا قرايبهم مستنيين وخدونا بالمترو على شقتهم في لوريتو، واتشطفت وغسلت هدومي ونمت، وف الصبح الساعة سبعة طلوعوا كلهم ع الشغل وم فضلش غير الاتنين اللي جم معايا، وبعد م فطرنا لمحووا لي بلطافة إنني م ينفعش أسكن معايم.

ونزلت للشارع، أول شارع في بلد غير البلد وعالم غير العالم، وحسيت إنني وسعت م النظافة والتنظيم والهوا، الشارع متبلط بالحجر أكنه حيط مبني ع الأرض وناعم جداً وبيبرق تحت الشمس، ومشيت لحد م لقيت سنترال مكتوب عليه بالعربي، دخلت فيه لقيت واحد مصري م المنوفية وقلت له أنا هربان م الصليب وم معيش فلوس وعايز أتصل بأهلي ف مصر قال لي اتفضل، وطلبت رقم بيتنا في مصر وخذت رقم محمود أبو الفضل، صاحبي اللي مسافر إيطاليا بقاله سنتين، وطلبت محمود أثاره شغال ف العمارة اللي عليها خشب قدامي عدل في وش السنترال.

وخدني وراه ع الفيزبا بتاعته ورحنا شقته خارج ميلانو، ف حته اسمها برنزاتي، آخر ترام 12، وهي شقة مأجرها أخوه حسن وواحد بلدياتي من الغرق، أوضة وصالة وطرقة ومطبخ وحمام وفيها ثلاث سراير دورين، وكان فيهم سرير فاضي، صاحبه سافر مصر، نمت عليه يوم والتاني ودفعوني الإيجار، دفعوه أهلي لأهل صاحب الشقة ف مصر.

وقضيت شهر مع أبو الفضل شفت فيه إيطاليا اللي كنت باسمع عنها، أو إيطاليا المشتهاة زي م بيقولوا، الشغل والشرب والبنات والحرية، كنا بنشتغل ف الجبس طول الأسبوع، ويوم السبت بالليل نروح حته اسمها "باركو السانبيوني" أو "الكاستيلو"، جنينة كبييرة جداً وفيها قصر من أيام الرومان زي "قلعة قايتباي" بس على أصغر، ولها بوابة عليها تماثيل، وكل سبت بيتعمل فيها فرح، فرح فرح، رقص وغنا وشرب للصبح، ومرات كنا بنام فيها، ونصحى على كلاب البوليس وهي

بتشمشم فينا الصبح، ونركب ع الفيزبا ونروح للشقة ف برنزاتي نريح ساعتين تلاتة، وف الليل نرجع على مكان اسمه "الدومو" على اسم "كنيسة الدومو" اللي ف وسطه وعليها تمثال السيدة مريم من الذهب الخالص، والكنيسة وسط مباني قديمة وقدامها ساحة كبيرة معمولة بالرخام وأولها تمثال فارس على حصان، وجنبها سلم واسع بيطلع على بلكونة عريضة بتبص ع الساحة كلها والناس بتشرب وتحتفل فيها، وأنا ومحمود كنا بنقعد عليها ونشرب ويجيلنا شباب يشربوا معنا، بنات

وصبيان، ونرقص ونغني ونتجن، ولو اتنين عجبوا بعض يعملوا اللي عايزينه بمنتهى الحرية، ومرة جونا جماعة مربيين شعورهم وكل واحد معاه صاحبتة وكلبه، ومعايم شنطة فيها عشرين قزازة نبيت أحمر، والشلط اشتغل، شربنا العشرين قزازة، وهما خدوا كلابهم ومشوا حوالي الساعة أربعة

الصبح، وسابونا مش عارفين ننزل ولا حتى نتكلم أساساً، فيه حوالي عشرين سلمة رخام اتقلبنا عليهم لحد م اتفرطنا ع الأرض، وكان المفروض نركب المترو رقم 12 اللي هيودينا برنزاتي، وكان فيه بار جنب المترو قدامه جنينة صغيرة قعدنا فيها وكانت هي القعدة م دريناش إلا الضهر على صريخ صاحب البار ع العرب اللي مش لاقين حته يناموا فيها، وبقينا الشهر، اليوم اللي م عندناش شغل يبقى سكر وعريضة لحد الصبح، وتاني شهر الشغل وقف والراجل اللي كنت نايم على سريره ف

الشقة رجع من مصر وبدأت تقلب معايا، وعرفت الكنايس والأكل ف الكنايس، ولقيت أمم، طوابير ممتدة على كل طقة، ف الأول كنت مكسوف من نفسي، وبعدين اتعودت. من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام.. زي م قال المتنبي.

يوميات الخطف

الخطف والثبيت والتقليب كان عادي في سبها، يقابلك شابين ثلاثة وينفضوك، وأكثر أو خليها أسلم ناس كانوا بيتثبتوا المصريين، وأكثر، أكثرهم من الحي الصناعي، يقفوا لهم في مدخله بالليل "وطلع اللي معاك يا مصري يا ممصخ"، والمصري يطلع على طول، لو كان جزائري أو حتى سوداني كان عارض واتعارك كمان إنما المصري.. يا لطالما اتعاركت مع الحسنواوي وعبد العزيز ورشيد على الحكاية دي، وياما قلت وكررت "الإنسان المتحضر خواف، أقول لكم على حقيقة بشرية الخوف يتناسب طردياً مع تقدم الأمم"، وكان الحسنواوي ينتفض "ونا نقولك للأسف المصريين خوافين خلقة، في المطلق هك ومن غير أي حاجة وعلى أي حاجة".

لكن ما علينا خلينا في تثبيت سبها، أنا عن نفسي اتثبت كثير، مرة واحنا في براكه حي الطيوري دخل علينا أربعة شباب ليبين بالطبنجات، وقال "وين لفلوس"، كان معايا أربعة عمال، اثنين إخوة ولاد عمي واثنين من عرب الربيعات في الجيزة، وأكبرهم اترعب، ولما سأله أحدهم "وين لفلوس يا ممصخ" أشار لهم إلي وقال "الفلوس مع حمدي" وتوجه الشاب إلي، وضغط الطبنجة في خدي، وضغط بالمشرب على عظمة الوجنة وصرخ زاجرا "طلع لفلوس".

وأنا أخاف من العنف، أرتعب من أي بلطجي حتى لو طفل صغير، لكني لا أخاف السلاح، أو إنني أصاب بعطلة تؤدي إلى نوع من الاستهبال، وعندي اعتقاد راسخ بأنه لا يعتمد على السلاح إلا الجبان، ومن رأيي أن الشجاع الحقيقي لا يحمل سلاحاً بل يخاف خوفاً من حمل السلاح، وعموماً رأيي أن الذي فكر في اختراع السلاح أصلاً شخص جبان، لا يعرف ماذا يفعل فيمن يخيفونه ففكر في السلاح، لو كان قادراً على الدفاع عن نفسه بنفسه ما فكر في البارود والقنبلة والسلاح، والإنسان لن يرقى ويرتاح فعلياً وفي أي مكان ما لم ينزع السلاح.

ولا أعرف من أين وثقت إن مسدس الشاب الليبي البلطجي المضغوط على خدي مسدس لعبة، وقلت بكل ثقة وثبات "حول اللعبة هدي يا شاب"، وكان الرد الذي أنهى اللعبة ولم الشاب طبنجته وقال "خيرك يا راجل كنا بنتمصخروا معاكم!".

وكنا نتلقى يومياً أخبار خطف وتثبيت مصريين وسودانيين وأفارقة ولا تتحرك شرطة سبها وحكومتها، وشاع أنها متواطئة أو أن أفرادها شخصياً هم الخاطفين، والحقيقة إن رجال شرطة سبها على مستوى الشكل والزي لا يختلفون عن الخطافين.

وكان الخطف عادياً في سبها حتى حُطفت زوجة طبيب يوغسلافي كان يعمل في سبها وانقلبت الدنيا. النظام اليوغسلافي بحكم اشتراكه كان على علاقة وطيدة مع نظام العقيد، والسفير اليوغسلافي في طرابلس احتج رسمياً..

ولكن دعك من السفير والثورة اليوغسلافية هي في الحقيقة عادة فينا، سواء كنا أنظمة أو مواطنين، أعتبرها مبالغة في الكرم بالأجانب بل أكاد أقول بالأعداء، نهتم بالآخرين أكثر ما نهتم بمأساتنا، والأغلب نرجع مأساتنا لتأمر الآخرين، حتى في مصر حتى في العراق حتى في تونس، الاهتمام جداً بمصائب المواطن الأجنبي والتجاهل وأحياناً سحل المواطن المحلي، "ويا سلام لو مصري أو أفريقي غلبان جي يشتغل"، باحس إنها عادة شعبية عربية تقدر تسميها الوله بالأجنبي، الأجنبي الغربي بالذات، تكفيره وتحقيره والوله والهلع منه في نفس الوقت، مهو الإنسان العربي زي م أنت عارف لازم يوله بحاجة ويحرمها في نفس الوقت.

وجاء الزعيم شخصياً إلى سبها وأقام وقال "نا اللي هنظبها بروحي"، وأنا شخصياً رأيته يظبطها بروحا، ويوقف السيارات بنفسه ويفحص الأوراق وإن اكتشف أي خلل "ارقد يا ممصخ"، وأطلق في الشوارع والميادين جيشاً مسلحاً من الصاد شين ظبط سبها، وفي عدة أيام أعادها مثل الساعة.

العزبة

"العزبة" ف "بورتا جنوة" على حافة الغابة، وتطلع منها تلاقي شارعين، اليمين يوصل للمحطة الأخيرة لأتوبيس، 90، 91 اللي بيسموه عجل الطريق في ميلانو لأنه بيلف ميلانو كلها، ورايح جي لأربعة وعشرين ساعة.

وتعدي من قدام "العزبة" تلاقي نهر النافليو، وهو نهر صناعي، عاملينه لتنشيط السياحة، وعليه كافتريات م الجنيين، تعدي الكوبري اللي عليه وتمشي شوية هتلاقي نفسك ف ميدان "الدومو" اللي كنا بنسهر فيه وبعده محطة ترام 7 و9 و14، وتخش تتمشى على رجليك تلاقي نفسك ف كنيسة "الدومو"، وتطلع منها تلاقي سوق برتا جنوة، سوق الحرامية، سوق أسبوعي عادي وجواه سوق بتتباع فيه الحاجات المسروقة، تدخل تلاقي الفتارين والأرض نفسها مفروشة فرش بالحاجات المسروقة من أول العجلة وشاشة العرض والكمبيوتر لحد الموبايل والولاعة والكلوت، وكلهم عرب، وأول م تيجي الشرطة يلماوا حاجتهم ويختفوا ولما تمشي يرجعوا.

و"العزبة" عبارة عن مبنى روماني قديم بيتدي بطرقة ضيقة وسط سورين، تدخلها وتحود شمال تلاقي أرج كبير مبني عليه دور كامل، طالع منه أو هو راس مثلث ضلعيه عمارتين واحدة طويلة ووحدرة قصيرة وقاعدته الغابة.

والعزبة مبنى حكومي قديم، استولى عليه ستة مصريين إخوة، كانوا متأمينين، معاهم ورق إيطالي، أكبرهم كان كابو ف المعمار وكان مشيلهم معاه شغل، وف يوم لموا أسرهم وأسر عمالهم وسكنوا ف المبني الحكومي القديم وسموه "العزبة"، ولما جت الحكومة وقفوا لها باعتبارهم مواطنين إيطاليين معندهم مكان إلا هنا، وجم ف الفراغ اللي كان غابة بين العمارتين ولموا الحجارة اللي ف الغابة ومخلفات المباني والعمارات الواقعة ف المنطقة كلها وخلوها عزبة عزبة، بنوا حوالي ستين أوضة وأجروها، والأوضة فيها ستة، والواحد يدفع ميت يورو ف الشهر، وفيه أوض مأجراها أسر، وكل سكانها مصريين، وستين ف المية منهم شغالين ف المخدرات، والباقي اللي حرامي واللي هجام واللي شحات واللي عايش على قفا الكنيسة.

سكنت مع جماعة م الشرقية ف أوضة فيها ثلاث سراير دورين وشاشة عرض وورسيفر ووصلها الكهرباء بسلك م العمارة، وقعدت بتاع عشرين يوم أخرج الصبح أفطر ف الكنيسة وألف ف الشوارع وم فيش شغل إلا المعمار اللي تشتغل يوم وتنام عشرة، وشايفهم طالعين داخلين بالحشيش، وف يوم

اتأخرت على فطار الكنيسة ونمت وصحيت لقيت واحد فيهم قاعد بيضرب سيجارتين، وإداني سجارة وشعشعت ف دماغى وضحكت كثير وبعدين عيظت، قال ما لك قلت أنا جي هنا عشان أبقي مليونير، تصور مليونير وأنا مش لاقى أفطر، قال لي م تلحم؟ قلت له ألحم إزاي؟ مد إيده تحت مخدة السرير وطلع صباغ حشيش م اللي بيتباع بميت جنيه في مصر، وقال لي تاخذ ده وتطلع ف مدخل العزبة هتلاقي واحد هتسلمه وإنت وشطارتك إن شا الله تحاسبه على مية وأنا هحاسبك على عشرة يورو ف الصباغ، وضربته ف جيبي وطلعت أتلقّت، ولقيت عيل إيطالي بتاع خمستاشر سنة جي ببدلة المدرسة، ولسه بافكر هو مش هو وهاقول له إيه قال لي حشيش؟ وعلى م طلعت الصباغ خطفه وإداني خمسين يورو وراح، ولحمت الثاني والثالث والرابع، وخذت ربع فرش وقطعته صوابع ودفنته ف الغابة وبدأت أبيع ف حومة "العزبة"، وأربع شهور واتمسكت، هجمت الحكومة ع "العزبة" ومسكوني مع بيبي عشرين، وبالصدفة م كانش معايا حاجة، ودخلوني.. واسمك وجنسيك، وخفت يرحلوني قلت لهم أزم، آدم عبد الله صفيط م العراق وهربان م الحرب. وقعدونا اتناشر ساعة ف الجرز وبصموني وطلعت.

مصدر الصاد شين

بدو مصر مصدر الصاد شين، بل القبائل الليبية كلها، وهم على المستوى العرقي نوعان، بدو الشرق وبدو الغرب، وهم يختلفون في اللهجة والزي والتقاليد والأغاني والموطن الأصلي، البدو الشرقيون هجرات وثقافة ولغة صحارى الشام وشمال الجزيرة العربية، والبدو الغربيون هجرات وثقافة ولغة الصحراء الغربية الكبرى من ليبيا حتى المغرب. وبدو الغرب على المستوى الجغرافي نوعان أيضاً، بدو الأطراف، الحدود الصحراوية، وبدو الوادي المزروع، والأدق شبه المزروع، أو الذي يمتد في قلب مصر كأفعى وسط الصحراء من الإسكندرية حتى أسوان، لاحظ أن المعمور في أراضي مصر لا يزيد عن 3 في المية من أرضها والباقي صحراء، والمزروع منها لا يزيد عن واحد في المية من المليون كيلو متر مربع. بدو الأطراف، شرقيون أو غربيون كانوا وما زالوا خارج اهتمام الحكومة المركزية في القاهرة في مصر الحديثة منذ مؤسسها محمد على باشا بعد تواريخ من الاحتلالات المتعاقبة، ليس خارج اهتمامها فقط لكن محل ربيتها وحذرها وحبها حرباً هذه الأيام في صحراء سيناء، وهي ربية على قسوتها وتنكيدها على بدو الأطراف إلا أنها لها ما يبررها على الأقل من المستريين ومنها أن بدو الأطراف، الحدود، في صحراء سيناء وصحراء مطروح، نصف القبيلة مصري يعيش في مصر والنصف الآخر أجنبي يعيش في دولة مجاورة، وطبعاً المسألة تكون أقسى وأمرعلى حياة بدوي الحدود عندما يكون الحد عدواً أو كان عدواً أو يتنمر للاعتداء في ظل سلام هش يضع حياة بدوي

الحدود برمتها على كف الانتظار، وللأسف الآن وفي ظل الربيع العربي الخلاق كلا الحدين عدوان، من الشرق إسرائيلي وحماس والجماعات الإسلامية الإرهابية، ومن الغرب الجماعات الإسلامية الإرهابية أيضاً وأُضِف إليها الفوضى الليبية الخلافة.

غير أن بدوي مطروح والغرب عموماً بالتأكيد أكثر هناة وراحة بال من بدوي الصحراء السيناوية المهدة دائماً بالنسف، وفي كونه حتى سنوات قليلة كان يعيش متوحداً آمناً إلى حد الاستنتاج في عزلة صحرائه معتقداً أن العقيد القذافي رئيس جمهورية مصر العربية! والأخطر والأمر أن العدو انتقل في السنوات الأخيرة إلى داخل سيناء وبدوها، جماعات إسلامية إرهابية تسللت إليها وتسعى لتحويلها إلى إمارة إسلامية تابعة للخلافة الإسلامية، وتخوض حرباً طاحنة مع الجيش المصري، والبدوي السيناوي مدهوس من الجانبين، إذا فجر الإرهابيون تفجر وإذا قصف الجيش قُصف وطبعاً مشكوك فيه من الجانبين، ضف إلى ذلك جرحه القديم في أرضه وهويته.

ومنذ قرابة العام هجرت الحكومة المصرية القرى البدوية السيناوية الواقعة في الكيلومترين الحدوديين الفاصلين بين مصر وغزة.. لكن هذا موضوع آخر خلينا في بدو الوادي المنتج الأصلي للصاد شين. طبعاً فيه صاد شين كثيرين جداً من صحارى مطروح والإسكندرية، ولكن لكونهم نصف القبيلة فعلياً في ليبيا ونصفها في مصر جعل الصاد شين، المصري الليبي أليق ببو الوادي.

وبدو الوادي لأنهم في الأحشاء كانوا محل اهتمام مصر الدولة الحديثة منذ مؤسسها محمد علي باشا، ولكن شومك اهتمام، أمنياً أو هو أمني أساساً، يمكنك أن تلاحظ ذلك في كثرة مراكز وأكمنة الشرطة في مناطقهم، وحتى جيل أبي نفسه وأعمامه الكبار كانت كلمة الحكومة لا تعني إلا قوة الشرطة الباطشة التي ستقبض عليه دون أي سبب إلا وجوده نفسه، ومن المؤكد أنها ليست لها أي علاقة بأي نوع من الخدمات والمرافق، بالعكس "يا ريت تريحهم وتسيبهم في حالهم"، وحتى بعدما توطن البدو ووصلتهم الكهرباء والمرافق ابتداءً من السبعينات أعمامي الكبار عندما كنت أعترض أو أكتب شيئاً ضد الحكومة يقولون لي بمنتهى الفزع "هدي الحكومة يا حمدي!"، يعني القوة الباطشة اللي توديك ورا الشمس دون رادع أو رقيب.

أحياناً أظن أنه من بقايا المذبحة القديمة التي أجراها سعيد باشا والي مصر من قبل الخليفة العثماني في جدودهم، وكان لي عم تحايلا حتى حصلوا له على معاش حكومي بسيط كان اسمه معاش السادات، وكان لا يزيد عن بضعة جنيهات كل شهر، ولكنه هو نفسه كان غير مقتنع بالمرّة أنه يستحقه أو أن الحكومة مسؤولة عنه بأي شكل من الأشكال.

ومعروف أن مصر عندما غزاها -أو فتحها إن شئت- عمرو بن العاص على رأس الجيش العربي الإسلامي كانت ولاية رومية، وكان الروم يحتلون منذ مائة عام بعد أن طردوا منها الفرس، وابتداءً من سنة 642م انتقلت مصر من تبعية الإمبراطورية الرومانية إلى الخلافة الإسلامية في كل فتراتهما وأياً كان مسماها وموقعها وسلالتها الحاكمة حتى الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798، حتى الحملة الفرنسية كانت مصر ولاية تابعة يحكمها والي يعينه الخليفة أينما كانت عاصمته وموقعه ومسماه ولقبه وكنيته الخالدة على مر التاريخ سواء كان راشداً في المدينة المنورة أو أموياً في دمشق أو عباسياً في بغداد أو عثمانياً في القسطنطينية.

وبالطبع المصريون قاوموا الفرنسيين وخرجوا ضدّهم بثورتى القاهرة الأولى والثانية، ولكن لم يشعر المصريون.. أكاد أقول لم يشعروا بوطنيتهم، وبأنهم شعب ووطن مستقل عن الخلافة الإسلامية إلا

مع الحملة الفرنسية، وبعد طردها سنة 1801، عادت مصر ألياً وبمباركة كبيرة من الشعب المسلم إلى تبعية الخلافة العثمانية في تركيا.

وهي بالمناسبة أسوأ الخلافات والاحتلالات ليس في مصر فقط وإنما في التاريخ برمته، وبالمناسبة أيضاً مصر مر عليها كل الاحتلالات التي شهدتها الإنسان تقريباً، الاحتلال الروماني واليوناني والرومي والعربي والتركي والفارسي والمغولي وأخيراً الغربي الأوروبي، واحتلال الخلافة العثمانية فاقهم جميعاً على الأقل من حيث امتداد حكمه على مدى أربعة قرون كاملة، وكان كل ما يقوم به من أعباء الحكم وعلى مدى الأربعة قرون هذه مجرد تعيين وال له حاشية تجمع له الضرائب ليرسلها كاملة إلى عاصمة الخلافة العثمانية كل عام بينما الشعب المصري جائع ومهان في الاستعباد والسخرة ومحروم من أي حق.. لكن البدو كانوا واخدين حقهم وزيادة زمن الخلافة العثمانية، وأنا أعتقد أن السبب الرئيسي لهجرة آخرهم قبيلة الرماح إلى مصر الرفاه الذي كان يتمتع به البدو، كانوا من ناحية خارج أي سيطرة، ومن ناحية شركاء فعليون للأمرء المماليك في الحكم، وكل قبيلة لها مضاربها وجيشها المسلح.

وفي نفس عام رحيل الحملة الفرنسية بدأ يظهر محمد علي في مصر، جندي ألباني عثماني متزوج من امرأة غنية وكان يتاجر في الدخان، والتحق بقوة عسكرية بأسسة أرسلتها الخلافة الإسلامية العثمانية لطرد الفرنسيين من مصر، وبعدها طردهم لهم الإنجليز وحطموا الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط قامت ثورة على خورشيد باشا والي الخلافة العثمانية في مصر، والتف الناس حول الجندي الألباني الطموح، واختاره أعيان وتجار ومشايخ مصر والياً عليها في سابقة تعتبر نادرة في تاريخهم وتواريخ الخلافات الإسلامية التي مرت على مصر، حيث كان الوالي يفرض عليهم دائماً من عاصمة الخلافة أياً كان موقعها، وضغطوا على الخليفة العثماني حتى أرسل فرمان اعتماد محمد علي باشا والياً. والحقيقة أن الخليفة العثماني لم يكن يشغله إلا أموال الجزية والضرائب بغض النظر عن الذي سيحكم مصر سواء محمد علي أو غيره، ولكنه في النهاية من غير المصريين الأصليين، واللافت أن المصريين أنفسهم ربما بفعل قرون من الاستعباد لم يكونوا هم أنفسهم مقتنعين بجدارتهم بحكم بلدهم، وكانت السلطة الفعلية في يد الأمرء المماليك وبعض القبائل البدوية المسلحة. وعندما استقر نابليون بونابرت في القاهرة جمع كبار مشايخها وأعيانها وتجارها ليختار منهم ولاية للأقاليم أي حكاماً ومحافظين استغربوا وسألوه باستنكار: "أليس معك مماليك! إن العامة لا يثقون بنا"، ومحمد علي ضمن أموال البيت العالي العثماني باعتباره صاحب أو قل المالك لأراضي مصر من أقصاها لأقصاها على خير وجه.

وظل محمد علي حكمه كله والياً عثمانياً يدين بالولاء والطاعة والضرائب للخليفة العثماني في القسطنطينية، ولكنه بدأ بناء مصر الحديثة على أسس مستقلة تماماً عن الخلافة العثمانية، مصر الدولة المستقلة ذات السيادة وإن ظلت تابعة للخلافة التركية طوال عهده، حتى وهو يحارب الخلافة التركية العثمانية وجيوش ابنه الفاتح إبراهيم على أبواب عاصمتها كان محمد علي والياً تابعاً يدين بالولاء والأموال للخلافة العثمانية.

المهم أن محمد علي في تأسيسه لمصر الحديثة وجد عقبتين كلتاها ضد إقامة دولة حديثة آمنة ومستقرة من حيث الطبيعة والتكوين والنشاط، الأولى الأمرء المماليك ملاك الأراضي كالالتزامات يدفعون ما عليها سنوياً للخليفة العثماني ويجمعونه مضاعفاً وبالسياط من الفلاحين، والثانية قبائل بدو الغرب الذين يعيشون على الترحال والرعي والسطو دون رادع على قرى وادي النيل الآمنة المستقرة، ويشاركون المماليك في كل حروبهم ومغانمهم.

الأمراء المماليك لأنهم في النهاية كانوا قلة ذبحهم محمد علي باشا، نعم حاربهم وطاردهم ونفذ فيهم سلسلة اغتياالات متعاقبة كانت ذروتها في مذبحة القلعة الشهيرة حينما عزم كل الأمراء المماليك على حفل زفاف ابنه أو خروجه للحج وذبحهم جميعاً على موائد الطعام داخل أسوار القلعة، أما البدو، بدو الغرب فلأنهم شعب ومسلح وفي الأحشاء، في قلب الدلتا والوادي، فقد أعد لهم محمد علي خطة، سياسة استيعابية قامت على الترغيب والترهيب.

بدو الغرب قبل محمد علي كانوا رجالاً، بدو بدو يعني، مسلحون ويعيشون في خيام ينصبونها ويطوونها في أي وقت وأي مكان خارج عن أي سيطرة، وضمن أعمالهم بل محل فخرهم السطو على قري الفلاحين ونهبها، فضلاً عن القتال المستمر لحساب الأمراء المماليك، ومحمد علي سن لهم امتيازاً سمي في السجلات الرسمية المصرية امتياز العربان، وخصص لهم مكاتب وسجلات خاصة في الشرطة والقضاء، واعتمد عرفهم وتقاليدهم في قضاياهم، ومنحهم من أراضي الظهير الصحراوي وتركهم يعيشون في الخيام ويحملون السلاح بشرط ألا يخرجوا من مساحة الأرض التي خصصها لهم، وأعفاهم من السخرة ومن التجنيد في الجيش، وهذا الأخير ظل امتيازاً سارياً حتى ألغاه الرئيس جمال عبد الناصر سنة 1955، وأول جيل يتجنّد من الرماح والعرب عموماً مواليد 1935.

ومن كان يتمرد يعلق على باب زويلة في القاهرة الفاطمية، وكم من شيوخ القبائل شنقوا وعلقوا أياماً على باب زويلة عقاباً على تمردهم ورفضهم الخضوع لسلطة دولة محمد علي باشا، وفي النهاية نجحت سياسته وظهرت أجيال بدوية استوطنت وسكنت البيوت واشتغلت في فلاحه الأرض التي كانوا يحتقرونها ولا يرون فيها عملاً لأنفاً بالبدوي، والآن قراهم تمتد على حواف الصحراء خصوصاً في شمال الصعيد.

وأخر القبائل التي أخضعها محمد علي قبيلة الرماح (جمع رُمح)، وهم الخلاصة الباقية من واحدة من الهجرات البشرية الكبرى في التاريخ، وهم جوهر الصاد شين، وهم في نفس الوقت صنّيعه الدولة المصرية الحديثة ممثلة في إصلاحات محمد علي، كما أنهم القبيلة البدوية المصرية الوحيدة التي أعلنت كقبيلة في مصر وليس لها امتدادات معروفة خارجها، وابتداءً من محمد علي كان شيخهم يعينه الملك، وكانوا معفيين من التجنيد في الجيش المصري حتى بدأ الرئيس جمال عبد الناصر في تجنيدهم عام 1955.

والرواية الشعبية ترجعهم إلى شاب من بني سليم أحب شابة من قبيلة الهلايل في مضارب نجد، ولما هاجر الهلالية في تغريبتهم الشهيرة إلى مصر هاجر معهم وأقاموا في الصعيد في عهد الفاطميين.

طبعاً التغريبية الهلالية معروفة وهي سيرة شعبية تغنى أو كانت تغنى ولها بطل مغوار اسمه أبو زيد الهلالي وجد الرماح فيها القاضي "بدير"، ولكن رواية التاريخ المسجل تذهب إلى أن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الفاطمي استقدم هذه القبائل من نجد ليزيد الكثافة العرقية العربية في مصر، وفرقهم في الدلتا والصعيد، ولكن لأنهم رعاة شرسون ومحاربون بالفطرة والغزوة بالنسبة لهم بطولة ومفخرة في القصائد والأشعار، وطبعاً رفضوا الاستقرار في مكان واحد أبداً وسط القرى المصرية المستقرة.

وفي نفس الوقت قامت ثورة المعز بن باديس الذي خلع طاعة الفاطميين ودعا للمذهب السني في تونس، فأشار رجال المستنصر بأن يتم التخلص من هذه القبائل المحاربة بالفطرة بإرسالها لإخماد ثورة المعز بن باديس، وتحركت هذه القبائل للغرب وأخمدت ثورة المعز بن باديس وساحت في

الصحراء الكبرى حتى الشواطئ المغربية ثم ارتدت إلى مصر في هجرات كانت أعظمها نهاية القرن السابع عشر، وقراهم حتى اليوم في الصحارى المصرية تكاد تتطابق مع قرى الصحارى المغربية، ووهي منتشرة على حواف صحاري المنيا وبني سويف والفيوم، وهي نفس القرى التي أتى منها جوهر الصاد شين، الذين حافظو مصريين ليبيين في نفس الوقت، وكتبتهم بالذات وبالإسم هي التي حررت أوزو من التشاديين المدعومين بالأسطول الفرنسي.

وجمال حمدان في كتابه عن ليبيا والثورة والزعيم القائد قال إن قبائل بني سليم والهلالية هم الذين أدخلوا اللغة العربية إلى ليبيا، والتاريخ المتواتر لهجرة أو قل عودة الرماح إلى مصر نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والبعض يرجعها إلى تواريخ أقدم، ولكن الثابت أنهم كانوا بدأً رحلاً لا يستقرون في مكان حتى عهد محمد علي.

وهم على مستوى الملامح فيهم أصل الإنسان، فيهم البياض الأوروبي والسواد الأفريقي، والغالب فيهم الطول والسمار والوسامة والكلام، حب الكلام والشعر، وكانوا يعيشون على الرعي ويقيمون في الخيام ولا يستقرون في مكان، وفي نفس الوقت قوة مسلحة قادرة على ردع الحكومة نفسها خصوصاً وأنها لم تكن حكومة وإنما حامية عثمانية يسهل ردعها والانتصار عليها.

وطبعاً كان ضمن أنشطتهم السطو على حقول وقرى الفلاحين الآمنة المستقرة، وفي فترة حرب محمد علي مع المماليك كان الرماح يتنقلون بخيامهم ومواشيهم في صحراء البحيرة، ويقال إن عائلتنا فقط هي التي كانت تنتقل في صحراء البحيرة، وإن باقي عائلات الرماح الأربعين كانوا عايشين ومستقرين في شمال الصعيد، ويقال أيضاً إن انتقال الرماح لشمال الصعيد وتمركزهم في الفيوم يعود لخطة محمد علي في تشتيت البدو، ليس تشتيتهم تشتيتهم وإنما تفكيك كتلتهم وخطهم بالمجتمع، القبيلة اللي في البحيرة تهاجر إلى الفيوم وقبيلة من الفيوم تهاجر إلى البحيرة وهكذا.

والحقيقة إنني لا أعرف بدقة متى بدأ الرماح الهجرة إلى شمال الصعيد، ولكن أعرف أن مؤسس عائلتي، جدي الخامس هاجر إلى مكاننا الحالي على أطراف صحراء جنوب الفيوم أثناء حرب محمد علي على المماليك، لكنه هاجر لسبب تاني خالص - ميعاد عرب حكم عليه بالتغرب، أي الهجرة من المكان، وعده تعداد الأنفس الذي أجرته الحكومة المصرية عام 1845 عده شيخ بدوي في الثمانين من عمره ولديه تسعة أبناء أصغرهم عمره سنة وعایش ومستقر في حوشه أي بيته في عزبته التي تحمل الآن اسم ابنه صقر أبوجليل في أقصى جنوب الفيوم.

والكثيرون من الصاد شين من الفيوم، من رماح الفيوم، ومنهم كثيرون من جيرانني وأقاربي، فيهم من كل عرب مصر ومن المنيا وبني سويف لكن الفيوم كانت مركزهم. والزعيم كرر فيهم ما فعله المستنصر الفاطمي في جدودهم لكن على أثار، وكل الصاد شين اللي من الفيوم رجعوا لمصر وعاشوا في الفيوم، وفي نفس الوقت لم ينقطعوا أبداً عن ليبيا ولم يفرضوا أبداً في الصاد شين.

زيارة في الفجر

الشغل في البلوك في مدينة حارة مثل سبها يبدأ في الرابعة قبل الفجر وينتهي في الثامنة أو التاسعة صباحاً على أبعد تقدير، لو اشتغلت بعد ذلك يعني إنك تنتحر بلا مبالغة بسبب الحر الشديد. وفي البداية كنت أشتغل وحدي، كنت ملتزماً ببنود الاتفاق، أبو عبد الله برأس المال وأنا بمجهودي، ولكن بعد فترة، ولما بدأ يتضح إن المصنع عبارة عن ستارة لبيع المقطر بدأت أتكاسل، واستعنت بنفرين من السوق طلوعوا عرب ربايع من الجيزة، واقتصرت مهمتي على رش البلوك الذي أنجز امبارح بينما النفرين يشتغلوا.

وفي يوم أو قل ليلة، بعد ما صحوا وضححو وبدأت أرش البلوك وبدأوا يقبلوا العجنة ويغسلوا البكيرة.. البكيرة مكنة حديد لصناعة البلوك، والعملية كلها تتكون من كوريك عادي وفاس كبير لتقليب الخلطة، وإناء صغير لرش الماء أمام الخلاط وهو بيخلط، وكوريك طوييل أشبه بالحربة لرفع الخلطة في القالب، ثم الذراع والمكبس "اللي هيعملها بلوكة"، وكان عندنا في المصنع بكيرتين، الثانية عملتها بنفسي أو عملها اللبناني تحت إشرافي في ورشته جنب المصنع عدل، كان لبناني نضيف ووسيم جداً، وكان "قصير وتخين شوية ووشه أحمر ملظظ وشعره سماوي منسدل للخلف، وكنت تشوفة تقول طيار من فرط الشياكة والنضافة والأدب". وكانت الورشة كبيرة والمهنة متقنة والزباين كتار، وكان في الستين من عمره، وكان بيشتغل لوحده، وليلاتي على الله معاه بنت أفريقية شكل، ويطمئنني بشيء من الثقة "م تخفش على ابوك بحطه في كاس الوسكي وينتهي أي خطر" وينفجر ف الضحك.

والشرشور والرملة كان يأتي بهم الموريتاني، نسييت الاسم، كان شاب أبيض ونحيف وساكت وكنت باتبسط لما أركب معاه ونتجول في أعماق الصحراء. والأسمنت كنا نحصل عليه من مقال مصري هو الذي أعطاني في الآخر المبلغ الذي فررت به إلى مصر، والمواد كانت مدعومة ، الرملة والاسمنت والظلط ويدوك منحة بناء كمان ، عموما الزعيم كان ببيحتر الحاجات على الشعب الليبي، كل شيء مدعوم، من الشرشور للأسمنت للمكرونة.. كله مدعوم، ببيحتر ببيحتر، كل حاجة يحتاجها الإنسان مدعومة بالكامل.

المهم... على ما بدأوا الشغل قبل الفجر خشت علينا في المصنع سيارة قيطون فيها أربع شباب، "اتنين قدام واتنين ورا، ووقفت العربية بينه وبين النفرين ونزل اللي قدام وانضموا للي ورا وشالوا خروف مدبوح مرابحة ورموه على الأرض" وواحد صرخ:
- " يا خنابة يا ممصخين".

وتمشى ناحيتي وقال:

- "هضا انتو خانبينا من مزرعة الشايب توا نقلكم للشرطة".

اقتربت منه وقلت بنبرة حاولت بقدر الإمكان أن تكون ليبية ومرحة حيادية وغير مؤكدة:

- "خيرك يا راجل كيف خانبينا وانت اللي ملوحتوا!".

فصرخ:

"خانبينا.. توا نقلكم للشرطة" واطمطع ونتر يده بمطوة قرن غزال مفتوحة، أيامها كان الأمن منفلت تماماً في سبها، وكان المصريين بالذات بيتقلبوا يومياً تقريباً، وهو عن نفسه اتقلب، وكان الأسلم يتقلب ويتفاوض لحد ما يراضيهم بأي حاجة، لكن دا مش مثبتهم ف الشارع دا المصنع والبراقة

والمكان اللي فيه، البلد كلها بتتام فيه، ثم إنهم هبل وميرجعوش من ورا مولاي، وما إن تستسلم حتى يركبوك ويهدلوك ومش بعيد يقتلوك بمنتهى السعادة والفخر، وأنا طبعا خفت، وحسيت بحاجة مثل الموجة الحارة اجتاحتنني من تحت لفوق حتى بظرت من عيني، وتراجعت خطوتين للخلف، وقلت له "ممك لحظة". ويبدو أن سؤالي الغريب أو قل المتهاوي أربكه فالتفت إلى زملائه وقال: "شنو يقول؟" مما سمح لي بالانتباه للمأساة والاقتراب من عطية.

عطية شاب من عرب الربايح بالجيزة، و لم أره مرة أخرى ولن أنساه أبداً، كان يقلب أو يمثل أنه يقلب العجنة، والولد تقدم ناحيتي وزغدني في كتفي بالمطواة وقال: "خيرك ما تسمع"، وفي لمح البصر كان عطية "سحب الكوريك اللي شبه الحربة من العجنة ولفه فوق راسه وروسهم فانبطحوا جميعاً على الأرض وصاروا يزحفون ناحيته باستعطاف مثل الأطفال "يا راجل إحنا ينتمصخروا معاكم.. هضا خانينا من مزرعة الشايب لكم تشووه" وسحب عطية سكينه وسلخه وتمينا نشووا معاً لحد الصبح.

الخربة

قفلت على شغل الحشيش، خفت ليقبضوا علياً ويرحلوني، وتراكم الإيجار شهر ورا شهر وصاحب الأوضة طردني، وخذني الزعيم بدروم العمارة اللي بينام فيها في "سيماغوستا"، وبيت يوم والتاني وصاحب العمارة طردني، فقلت مبدهاش، قدام العمارة فيه جنينة صغيرة فوقها كوبري، خدت حاجتي وجبت مرتبة وبطانية م الكنيسة ع البطانية اللي معايا ونصبت سرير محترم تحت الكوبري وقعدت. الساعة ستة الصبح أتشطف وأفطر ف كنيسة "باركو لافيتيسي"، اللي كنا مسمينها جاردينة هويدي نسبة لواحد من عرب الفيوم كان قاعد فيها على طول، واتمشى ف الشوارع واتعدى ف كنيسة "السيسيو سنترالي" محطة القطر الرئيسية في ميلانو، والعشا في كنيسة ترام 14، ودي فيها غدا وعشا، بس الغدا بتاع "السيسيو سنترالي" أحسن من غداها. وقعدت ف المكان ده ثلاث شهور، ولفيت ميلانو حطة حطة، كنت أحب أتمشى فيها في كل أحوالي، معايا فلوس واللام معايش، عندي مكان واللا صايغ، كانت بتريحني، والاسعة، واسعة واسعة، تحس إنها دولة، وقال لك زمان كانت دولة، وفيها كل حاجة والبني آدم مهما ابيض واللا اسود واللا حتى كفر يعمل اللي هو عايزه بمنتهى الحرية بشرط يكون في حاله وم بيضرش حد. وكان بيعدي عليا بلدياتي وقرايبي عرب الفيوم وكانهم م يعرفونيش، م انا بربوني، يعني شحات ومش شحات بس شحات وزبالة، ولما اتصلحت معايا وبقالي بيت وباصرف بالآلاف رجعوا زي الكلاب.

وتحت الكوبري اتعرفت على أضيف وأنصف وأكرم ناس في حياتي، أسرة مسيحية مصرية جت هنا من عشرين سنة، ف الأول جالي جورج، كنت كسلت على فطار الكنيسة وقاعد أتمطع على سريري تحت الكوبري، منين؟ م الفيوم، منين؟ من أسيوط.. وضربنا سيجارة حشيش مع بعض، وتاني يوم جالي هو وأخوه مايكل وقال لي "عازمينك ع الغدا ف البيت"، واتكسفت أروح، فلقيتها جاية بنفسها، أم جورج، أمي اللي طلعت لي ف الغربية وتولتني أكل وشرب وهدوم ويامه لحت عليا تجوزني بنت إيطالية وتعمل لي إقامة رسمي، لكن هيهات.

وف يوم قابلني رشيد التونسي سواق المركب، و"ساكن وين" قُلت له: "تحت البنطة"، قال تعال

اسكن معاي ف "الخربة" في "سوماغوسطا". "الخربة" كانت عبارة عن عمارة قديمة خاليتها للترميم وقايمة على شقتين وكل شققها متقفة حديد، وبينهم طرقة واسعة ساكن فيها رشيد وواحد قريبه، ولقيتها حلوة ودرا، أنا كنت ساكن ف الشارع وجبت سريري وقعدت معاهم، شوية واتخانق الزعيم مع قرايبه وسكن معانا.

رشيد كان شغال ف المخدرات، حشيش وكوكايينا، وقال تشتغلوا ومَ كانش فيه حل ثاني وادأنا نص فرش، وخذنا للمكان اللي هنشغل فيه.

جنيئة كبيرة فيها حديقة أطفال وجنيئة كلاب وتخش لجوه شوية تلاقي حنيفة كبيرة شغالة على طول، وعلمنا نرفد السلعة فيها ازاى وفين بحيث لما تطب الحكومة يبقى ما لناش علاقة بالبضاعة، ووصانا "م تتلعوش م الجنيئة.. تتمشوا تقعدوا إنتو حرين وم تعلقوش م الزباين هم هيجوا على أشكالكم، أشكال العرب، مهنكش حد بيشتغل ف مخدرات غيرنا، وحتى لو مش شغال ف الحشيش هيقول لك "فوم" هتقول له "فومو" وتتفق ع السعر وتاخذ المصاري الأول وتتلفت هك وهك وتدير روحك بتوطي على حاجة وتخطف السلعة المرفودة وتعطيه".

واشتغلنا، والفرش كنا بنقطعه صواب ونبيعه في م فيش ساعتين، وبدأت العملية تسأسأ، ومرت الفلوس ف إيديا وبدأت ألبس ماركات وأكل في أفخم المطاعم، والناس اللي كانوا بيهربوا مني وأنا قاعد بربوني تحت الكوبري رجعوا يحترموني جداً ويسهروا معايا ف البار، وبدأنا نبيع كوكايينا مع الحشيش، وشديت كوكايينا لأول مرة وحسيت إنني فيه قوة ألف راجل وأقدر أنام مع ألف واحدة ومركز جداً وم اكولش خالص، كنت باقعد بالأسبوع أشد ف كوكايينا وم شربش غير عصاير لحد م بقيت زي قلم الرصاص.

التوانسة تقريباً متخصصين في بيع الكوكايينا، التوانسة والمغاربة دي شغلانتهم، بيجوا إيطاليا أساساً عشان يتاجروا فيها لكن م يشربوهاش أبداً، ولما لقونا مهلكة، بنحرق نص البضاعة ونبيع النص، قال لنا رشيد معلش اشتغلوا مع نفسكم. واتعرفنا على تاجر مغربي وبقينا ناخذ منه كوكايينا وحشيش بكميات كبيرة ونوزع بالجملة في ميلانو وع البلكس 42 نفسه، وضرنا معاه بتاع تمن شهور، وكترت الفلوس، وخذنا شقة ف عمارة نضيقة في "سوماغوسطا"، وخلينا الخربة للشغل بس، وليلاتي على الله سهر ف البار وصالات البلياردو لحد الصبح.

وف ليلة اتعرفت على صديقتي الإيطالية، كنت بالعب بلياردو مع الزعيم وغلبته خمس مرات، أغلبه الجيم واقعد اضحك عليه، ولقيتها بتبص لي وتقول لي م تلاعبني أنا، فرحت جداً وسبت الأستيكة اللي ف إيدي وسلمت عليها وقلت لها: "صدام المصري" وقالت لي: "تكا" يعني جميلة بالعربي، ولعبنا، أول جيم غلبتني ثاني جيم غلبتها تالت جيم غلبتني، وقعدنا نشرب حاجة وتعرف على بعض، أنا مصري وباشتغل ف الجبس وأنا إيطاليا وشغالة موديلز وخذنا التليفونات، وتاني يوم اتقابلنا ف الصالة ولعبنا وشربنا وسهرنا للصبح ووصلتني بعربيتها الجولف للشقة، وبقينا اصحاب تحيلي كل ليلة بعربيتها ونروح نسهر ف أي حته، ومرة عزمته الشقة، وسهرنا ف صالة ديسكو ورحنا ع الشقة، وقعدنا نشرب حشيش، فقالت لي م فيش كوكايينا؟ طبعاً أنا عندي ودخلت جبت لها خمسة جرام، وقلت لها المعلومة الجديدة اللي انت م تعرفيهاش أنا باشتغل ف المخدرات. واتكيفنا كوكايينا، والكوكايينا بتعمل هياج، وهي جميلة، موديلز موديلز يعني، وكنا ف الصيف وتقریباً عريانة، ومضت مني نظرة لصدرها وحسيت إنها لاحظت ولسه باحاول ألم نفسي لقيتها بتقول لي تحب تنام معايا؟

كان عندها واحد وعشرين سنة، وكانت جريئة وتموت ف المغامرات، وياما عملنا مع بعض مغامرات،

ودلوقت بتعمل أفلام تسجيلية عن عالم المخدرات في إيطاليا، وكان أبوها ليه فيلا في "شرم الشيخ" بياجرها طول السنة، وكانت بتقضي فيها شهر تمنية من كل سنة، تاخذ الإيجار وتتفصح في مصر وتعمل لها صيانة وتسلمها للبواب وترجع، واستمرينا مع بعض طول الفترة اللي قضيتها هناك، وكانت تسييني لما اتسجن ولما أطلع م السجن ألقياها أول حد جالي. وف يوم شربنا ف بار قريب م "السيسيوني سنترالي" وحاسبت وماشينين، وكان بقبلي يورو واحد حطيته ف مكنة القمار ومشينا، وواحناع الباب سمعنا زيطة وبلالين بتفرقع أتاريني كسبت ميت يورو، رجعت هاخدهم وهامشي غمز لي راجل إيطالي كان على تراييزة جنب المكنة وشاور لي بإصرار: العب العب. وحطيت يورو تاني وكسب وتالت وكسب لحد م وصلت عشرة وكسبت ألف يورو وتكا جنبي بتتنطط م الفرحة، جيت ألعب تاني شاور لي الإيطالي: لا، ونزلت له قزازة نبيت، ومن يومها بقت لعبتنا وإدماننا وجناننا الأصلي.

يطيح تاج تتسلطن عليه دجاجة

الحاج محمد السيفاط كان شاعراً بدوياً مفوهاً وكان من الرجال المقربين من الملك إدريس السنوسي وكانت تربطه علاقات وطيدة بشعراء ووجهاء القبائل البدوية في مصر من أقصاها إلى أقصاها، ولما قام الزعيم بثورة الفاتح العظيم فر إلى إيطاليا، وهناك اشترى بما هرب به حوالي نصف شركة الفيات الإيطالية، وقاد المعارضة الليبية ضد انقلاب الزعيم، ونجح في إزعاج وتهديد ثورة الفاتح الوليدة العبيطة تقريباً فيما يخص أمور الحكم والإدارة. والسيفاط تسلط على الفضايح يكشفها يومياً في الأبحاث والصحف والإعلام الغربي المعادي لا لكونه يعرف الزعيم وثورته وأسرتة أدق المعرفة، وإنما لأنه يعرف أنه صنيعة الزعيم الأكبر جمال عبد الناصر وطوع يده، وفعلاً لجأ الزعيم لأستاذه عبد الناصر ورجاه "فكُوننا م الرجل هضا واللي عايزه ياخده في ليبيا وإيطاليا وحتى هنا عندكم في مصر". وأجهزة جمال عبد الناصر لم تجد أليق من النائب البرلمانى أبو بكر الباسل الرمحي للتفاوض في هذه المسألة، أولاً لأنه بدوي، وجده كان شيخ قبيلة الرماح في مصر كلها، ثم إنه حفيد حمد باشا الباسل حليف الكفاح الليبي ضد الاستعمار وحصنه المكين. المهم سافر الباسل إلى روما في مهمة تحرسها المخابرات المصرية، والتقى السيفاط وحاول إقناعه بالعودة إلى ليبيا و"ياخذ إللي عايزه" ولكن السيفاط كان محمياً في الغرب ورفض، وصمم على مواصلة الثورة على الانقلاب حتى النهاية، وأرسل مع الباسل ملزومة شعرية لشعراء الفيوم حتى يقولوا عليها كعادة الشعراء البدو، حيث إن الشاعر يكتب بيتين في شأن يخصه كفقده عزيز أو محبوبة ويطلب من باقي الشعراء الكتابة عليها. ويشاع أن السيفاط أرسل هذه الملزومة خصيصاً لصديقه شاعر قبيلة الرماح بالفيوم ليستشيريه في العودة، وقيل أيضاً إنه أوصى الباسل أن يوصلها له "فإن أشار بعودتي عدت"، ولكن كلماتها تتم عن تحريض، حث لأبناء القبائل البدوية في مصر على مساندة الثورة ضد الزعيم الشاب، وتحريضهم صراحة على إزاحته من الحكم، وربما أرسلها السيفاط بنفسه، وكلماتها حماسية، وتمدح وتصف "فوارس مغاوير ع الاحصنة والمكوغظ في زمن النفاثة":

يا وطن ما نعطيك للقذافي
ولا للصعيدي إنفات فيك انكافي
كفايتي من شرقا
وتشترك جملا قبايل برقة
اللي لا يسكروا لا يلعبوا بالفرقا
ولا يركبوا غير النهود الوافي
اللي نين ما لمكوغط يرقا
ما يعلقا مسمار بيقي حافي".

ونقل الباسل الملزومة إلى مصر وسلمها للمخابرات، واستدعي شاعر بدوي فيومي كان صديقاً
للسيفاط أيام عز السنوسية ورد بقصيدة واقعية مثبطة تنصحه بالتوقف عن النضال والعودة إلى
ليبيا لقضاء "يومينه اللي باقيين له في الحياة الدنيا"، وتشرح له أن الدنيا تغيرت ولم يعد هناك
الحصان والفارس والنهود الوافي ولا المكوغط وإنما دبابات وطائرات نفائة "وعويلة مشعرنا اتلوا".

"مرايفين يا سيفاط باخلص نيه
ارياف زرع من مده قليل اميه
يا حبيب يا غالي

انزل وروح يا ربيع الجالي
ونقضوا معاك يومين ع الأطلالي
وبرزق واحد نرزقو جمليا
يا بو السنوسي يا قليل امثالك
لرجال تقتل م الحشم منها
وين المكوغط توا؟

وين هم رجال الفرسة والقوة؟

في عهد طيارا مدخن جوا
وجيوش برياسة عويلا مشعرنا تلو
موش أول حاجة

يطيح تاج تتسلطن عليه دجاجة
نظام ربنا والكون له ديباجة

من عهد كسرى ومن عهد بني أمية".

لوريتو

التاجر المغربي كان بيسلمنا البضاعة ويحاسبنا بعد م نصرف، وف مرة سلمنا أربع فروش حشيش
الفرش بخمسيت يورو، ورحنا رقدناهم ف الغابة قريب م "العزبة" واتسرقوا، حد شافنا واحنا
بندفنهم وسرقهم، والمغربي كان له عندي م الأول تمن نص كيلو كوكايينا، ورحنا له وقولنا له البضاعة
اتسرفت واديننا شغل تاني واصبر علينا لحد م نسدد، وم رضيش وقال "توا تسدوا اللي عليكم"
وشدينا مع بعض، وكان راجل كبير، عنده يبجي خمسة واربعين سنة، وكلمة منه وكلمة منى قل أدبه
ضربته، أربع ابكاس وقع ع الأرض وأغمى عليه، والزعيم قال لي اقلب، امشي دلوقت، المنطقة كلها

مغاربة ودا الكابو بتاع الحشيش اللي بيدي الكل. وسبت "سوماغوسطا" كلها وقلبت على "لوريتو"، وقعدت قريب من المنطقة اللي فيها الميدان اللي اتشئق فيه موسولينى، ونزلت هناك على واحد بلدياتى اسمه نمر الغرقاوي، وقعدت عنده يومين لحد م لقيت سكن مع مقاول تكسير واشتغلت معاه ف التكسير، واتصلت بالزعيم وقال لي إنه خلص الموضوع مع المغربي وخذ منه شغل، م عندوش حل تانى لازم يدي سلعة عشان يرجع فلوسه، لكن الزعيم م اشتغلش بيجي شهرين وف ليلة لعب قمار وخسر فلوس السلعة كلها، وجاله المغربي ضربه بسكينة عمل له عاهة واتلموا المغاربة ودين ربك لنقتلوه هرب وجالي لوريتو، وبيت معايا ليلة والتانية وخذته سكتته ف شقة مع جماعة م المنصورة ف الشارع اللي جنينا، واشتغل مع واحد ف المحارة وسبنا منطقتنا خالص.

المقاول اللي كنت شغال معاه كان شغال م الباطن مع كابو إيطالي على م شافني م ارتاحليش، بص لي من فوق لتحت بصيت له من فوق لتحت، ندالي بمنتهى الاحتقار رحى له بمنتهى الاشمئزاز، قال لي العرب الترسو لومندو، عالم تالت متخلفين يعني، قلت له مصر لا عالم أول ولا عالم تالت مصر أصل الحضارة، وإيطاليا هي ترسو أوروبا، النضيفة والتحضر فعلاً في ألمانيا وهولندا وفرنسا مش إيطاليا اللي زبالة أوروبا، واتترفز ووشه احمر وفصلني وإحنا وافقين. وخبطت شوية مع الزعيم ف المحارة، والحالة بدأت تقمط وقل الشغل واحنا أساساً زهقنا من شغل الفاعل، وتراكم إيجار السكن علينا شهر والتانى.

وصاحب الشقة اللي كان ساكن فيها الزعيم بدل م يمليه قال لك يستغله ف السطوع الشقة اللي قدامه، كانت مهجورة من زمان وافنكر إن اصحابها مش راجعين، وخلا الزعيم نزل الصبح ع الشغل وكسر باب الشقة وغير القفل ولما رجع فهمه إنه اشتراها وسكنه فيها، وأسبوعين والزعيم طالع لقي الشرطة واقفة مع أصحاب الشقة الحقيقيين ومطلعين حاجته، وعلى طول لقط الموضوع سألوه مين صاحب الحاجة قال لهم م اعرفش، ولما جه صاحب الشقة اتخانق معاه، لو كان قال حاجتى كان خد له م يقلش عن ثلاث سنين سجن.

كانوا ستة غير صاحب الشقة وكلهم م المنصورة وكلهم شغالين في مطعم واحد، والواحد فيهم بياخد ألفين يورو ف الشهر، وبيقبضوا ف آخر الشهر وف نفس اليوم يسلموا الاتناشر ألف يورو كلهم لصاحب الشقة يقفل عليهم شنطة تحت سريره لحد م بيعتهم مصر وعایشين ع البقشيش، ويفضلوا شغالين زي النار طول الأسبوع وف الويك إند كل واحد يجيب واحدة م الشارع ويعملوا حفلة جنس جماعي ف الشقة، هو دا كيفهم الوحيد.

وم يشوفوش حتى الشارع وم بيشربوش غير المية.

وصاحب الشقة م كانش بيشتغل، كان ليه شقتين غيرها عایش عليهم، وكان ينزل مصر كل ثلاث شهور ويقلب ف البضاعة رايح جي، وكان ليه واحدة ف الويك إند ولية عشرين يورو على كل واحدة بدل استضافة، مش عارف إذا كان بياخدها م الشراميط واللام السكان، والأهم من كل ده كان ليه عادة منتظمة، يصحى الصبح الساعة عشرة بالضبط بعد م ينزلوا ع الشغل، ويشغل أغنية مصرية شعبية ويعليها ع الآخر ويقعد ف الحمام ساعة كاملة وم يطلعش لو الدنيا اتقلبت.

والكيف دا بالذات اللي أغرى به الزعيم، نزل معاهم الصبح زي م بينزل كل يوم، وكنت مستننيه على قهوة تحت، وع الساعة عشرة رجعنا، وفتح الباب بالراحة خالص ودخلنا، ولقينا صاحب الشقة زي ما هو مشغل أغنية لحسن الأسمر ع الآخر وهايص ف الحمام، وسحب الزعيم الشنطة من تحت السرير، وطلعنا ع الخربة اللي اتمسكت فيها في "بورتا جنوه"، ودخلنا ف الغابة وفتحنها، ولقينا فيها 12 ألف يورو بالتمام والكمال وست جوازات مصرية وورقهم الإيطالي ودفتر الشيكات بتاع

صاحب الشقة، وولعنا ف الجوازات والورق ف الغابة، وخذنا الفلوس ودفتر الشيكات ورجعنا على شقتي، وعلى آخر النهار رجع لهم الزعيم ع الشقة متعفراً أسمنت كأنه راجع م الشغل عادي. وفرتكنا الفلوس ف شهرين، كيف وقمار وبارات للصبح، وبقي ألف يورو كلمنا رشيد في "سوماغوسطا" جه خده وادانا فرشين حشيش، وقعدنا نبيع ف جنيئة في "لوريتو"، يومين ولقينا عصابة ألبانيزية محاطانا بالمطاوي، فيه إيه مفيش إيه قال لك دي منطقتهم وم حدش يقدر يهوب منها، طب يا عم شغلونا معاكم قال لك م نضمنكمش، وانتو لازم تمشوا من هنا نهائي، والألبانيز خطرین جداً، هما المافيا الحقيقية ف إيطاليا، ويقتلوك زي اللعبة، وم كانش فيه حل إلا نسيب لهم المنطقة كلها.

صاحب المعجزة

حمدان يعتبر صاحب معجزة، الحقيقة هي في الأصل معجزة أمه المتوكله أو قل المستحمة وآلت إليه، حمدان ابن عم وهبة النوبي جارنا في البلد سافر في السبعينات، ونظراً لأنه من يومه ناصح وحرك ومتربي في بيوتنا ويعرف اللهجة البدوية كأهلها عرف على نفسه باعتباره رمحي من الفيوم وحصل على بطاقة الصاد شين من أول لقاء في مكتب بني غازي، وأرسل مسجلاً وشريطاً ينحت فيه كأبي شيخ عرب وأفاد أنه تمام وأنه يعمل في المقاولات.

ولكن بعد شهر قليلة قامت الحرب، واجتاح الجيش المصري الأراضي الليبية حتى الحدود التونسية، وانقطعت أخبار حمدان، وجئت عمتي عزيزة وبكت حتى ابيضت عيناها ومشت للشيخ والعمدة وحتى ضابط النقطة ورجعت مرات دون أي أمل في الولد، وفي النهاية فتحت له الكتاب، وعزبتنا شهيرة بفتح الكتب وكان فيها دائماً ما لا يقل عن ثلاثة يفتحوا الكتب، وعمتي عزيزة كشفت عند أمهرهم عمي بخيت، وأخذت له أثراً باقياً من حمدان أظنه فالينة داخلية أو سروال قديم وطلبت منه عملاً يرجعه، وعزّم الشيخ بخيت على خرقة وأطلق بخوره لكنه لم يقدم لها عملاً لحمدان وإنما وصفة: تستحمي قبل الفجر وتطلع إلى سطح بيتها عارية وتنادي بل تصرخ بأعلى صوت: "يا حمدان" ثلاث مرات وهيسمعها حمدان في أي مكان يعيش فيه ويرجع بإذن الله.

عمي وهبة النوبي قال إن مراته اتجنت، قالها في نفسه وقالها في وشها، لحسها الولد، وحذرها مرات، يا ولية هتفضحيننا، يقول إيه الناس لما يلاقوكي عريانة ملط وبتصرخي كده في عز الليل، ولكن عزيزة ملتاعة، قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليا حجر، غافلته ذات ليلة واستحمت في آخر الليل وصعدت قبل أذان الفجر عارية تماماً إلى السطح ووضعت يديها خلف أذنيها وأذنت بأعلى صوت "يا حمدان، يا حمدان، يا حمدان"، ولا تعرف إن كانت صدفة أو أنه سمعها فعلاً في الصحارى الليبية، يومين ورجع، رجع حمدان، ورجع مجبور الخاطر والبال، وشافته البلد كلها راكباً البيجو الاستيشن الأبيض المتوج بالحقائب، ونظراً لأنه عاد بكل سهولة في عز الصدام المسلح

بين الزعيمين المصري والليبي يبدو أنه ظن أنه قادر على العودة في أي وقت، وشهرين ورجع ليبيا ولكنه هذه المرة لم يعد، ابيضت عينا عزيزة وشق صوتها ليل عزبتنا الهادئ مرات لكن حمدان لم يعد أبداً.

وبميزة بطاقة الصاد شين اشتغل في شركة للتنقيب على البترول في صحراء سرت، ولكن عندما جاء ضابط المخابرات الليبي للشركة وأخذ بيانات وعناوين كل الصاد شين المعينين في الشركة خاف ليجندوه في الجيش وهرب من سرت كلها إلى موطن الصاد شين في سبها.

محطة القطر

ركبنا على "بورتا رومانة"، ورحنا لجماعة بلدياتنا من عرب الفيوم كانوا قاعدين في "كورس اللودي" محطة قطر قديمة، ومساحتها كبيرة بتاع ثلاثين أربعين فدان ف وسط الغابة، وهي مهجورة من زمان وبيعدي منها قطر واحد، وفيها أوض كثيرة جنب شريط القطر م الناحيتين، وساكن فيها الدنيا كلها، أفارقة ومغاربة وتوانسة وألبانيز ورومان ومصريين، كل جماعة نضفوا أوضة م الزبالة والقرف اللي فيها ومسحوها كويس وجابوا سراير أو مراتب ع الأرض وقعدوا فيها.

وقرايينا كانوا قاعدين في أوضة، وكانوا بيقضوا الليل مدسوسين لبتوع المخدرات ف الغابة، كل اللي شغالين ف المخدرات في ميلانو كانوا بيرفدوا البضاعة ف الغابة، وهما كانوا يسهرؤا طول الليل نايمين على بطونهم مستنيين حد يبجي يرفد مخدرات، وعلى م يرفد ويتوكل على الله يهجموا وينبشوا الأرض لحد م يلاقوها، وكان مرات يقعوا في رفدة واللا اتنين في الليلة الواحدة، وأحياناً يعدي الأسبوع والشهر كله من غير ولا رفدة، خبطة كوكايين مثلاً، طرد حشيش أو سريقة، هي دي شغلتهم، وطار وغدا وعشا ف الكنيسة، وطبعاً نايمين ف المحطة من غير فلوس، وعلى م شافونا اترعبوا، هما عارفينا ف البلد، وكمان عارفين قصتنا هنا، بيرحبوا آه بس واضح عليهم الزنقة والكر، قعدنا يوم والتاني والتالت وأنا داخل ف المحطة لقيت أوضة معمولة م الزنك، جوه المحطة برضو بس لازم تضطر تمشي لآخر المحطة عشان توصل لها، ولقيتها متبلطة وعليها باب بس مليانة قزايز خمرة مرصوفة فوق بعضها، جبت الزعيم ونضفناها وظبطناها تمام وجبنا عزالنا وقعدنا فيها، ف الليل ننورها بالشمعة وف النهار نور ربنا.

وندور على شغل ومفيش، حتى في الحشيش مفيش، واتعرفت، وريحتك فاحت في إيطاليا كلها، إنت أصلاً هربان من الفوحان في مصر، أتاري الفوحان لأبد في كل حنة. لكن أنا باحب كده، باحب السهر والشرب والقمار والحياة، وم جيتش إيطاليا إلا عشان أعيش في مصر من غير أي مشاكل وأديني عايش هنا والحمد لله.

أي واحد تقول له محيي أبو موسى يقول لك يا ساتر يا رب، تقول له آدم عبد الله صفيط يتخض، تقول له الباقو صدام المصري يقول لك انت عايز تحبسني واللا إيه؟

واحد من أولاد عمي الكبار صحابه القرييين كابوهات شغل كبار في ميلانو، واحد إمبراطور السقالات في ميلانو كلها، كل السقالات التي بتشوفها على عمارات ميلانو بتاعته، والتاني أكبر منفذ لتصميمات واجهات البيوت والعمارات في ميلانو كلها، واللاتين من جنبنا من عزبة تطون، ودي منها شعب بحاله في ميلانو، وفيه مناطق كاملة اسمها تطون، ورحت لهم اللاتين، وكل واحد فيهم قابلني كويس وضرب إيدو وطلع ألف يورو و"خدهم لما ربنا يسهلها ف الشغل"، ولما لحيت وبقيت

أتصل بالواحد عشر مرات ف اليوم رد عليا الحاج محمد بتاع السقالات بالكلام الواضح المفيد "يا ابني انت هتشترينا!! عمك نفسه قال إنك بتاع مشاكل، واحنا شغلنا ف الشارع، ومش مستعدين نضيع ثلاثة اربعة مليون عشان خاطر عيونك".

وم كانش فيه حل إلا المخدرات، أيامها طبعاً، دلوقت مفيش حتى المخدرات، ونجحنا وبقينا لوردات في سوماغوسطا كلها، وكنت بأتعمد أنا وكاتيا م نسهرش إلا ف بارات نجوم المجتمع، وكنا بنلعب على نفس التراييزة اللي بيلعب عليها برلسكوني رئيس الوزراء.

ولقينا نفسنا جعانيين، جعانيين جعانيين، وأنا باتقرف من أكل الكنيسة، مش هو نفسه لكن زحمتة وطوابيره ونسوانه، نسوانه بلدياتي المصريات، تعرفهم م الحجاب، ولما باشوفهم كنت بابقى عايز الأرض تتشوق وتبلعني، ومش فقرا بس، ولا مضرويين زي حالاتي، فيه اللي بيقبض خمس تلاف يورو ف الشهر ومخلي مراته أو مراته مخلية نفسها تجيب التلات طقات م الكنيسة، وتتحشر وتتفحص وتتصفر من كل الرجالة الألبانيز والرومان والمصريين طبعاً لحد م تاخذ الوجبة.

قعدنا فترة نسرق سوبرماركات، تدخل السوبرماركت الكبير وتقلب اللي أنت عايزه أكل شرب أفخر أنواع الخمور وتضربها تحت الجاكت وتطلع، وكنت لابس جاكت زي اللي معمول أساساً للسرقه، طبعاً فيه كاميرات لكن ركن المية المعدنية خالي م الكاميرات، تقطع الورقة الملزقة ع الحاجة وتشتري لك أي حاجة للتمويه وتطلع، ومرات كثير اتمسكت، وياخدوا الحاجة ويقول لك اتوكل على الله. ومرة كنت جعان ودخلت نفس السوبر ماركت التي اتمسكت فيه وخذت فرخة مشوية وقزازة نبيت وقعدت أكل في وسطه، جم الحرس وبكل أدب وشالوني وبإزازتي وفرختي عشان أكل في أوضة على جنب، وكان أسهل من السوبر ماركت وأمن سرقة العجل، مقص حديد كبير وطرباج تبقى العجلة بتاعتك، والعجلة تبيعها وإنك واقف في سوق بورتا جينوة.

وشوية تثبيت، تثبيت السكارى اللي طالعين م الخمارات آخر الليل، وبالذات تثبيت سود أمريكيان زمايلنا ف البارات لشدة سكرهم وغيابهم عن الوعي أثناء التنفيض، الواحد منهم يطلع م البار بيجر رجليه، تروح حاضنه وتشد جسمه بين إيديك وتتفضوا وهو ببيضحك، لكن منهم اللي بيعصلج ويتجن ويجري ويشتم في المغاربة "يا مغربي يا مرته، يا مغربي يا مرته". المغاربة كانوا زي السود الأمريكيين ببسكروا لحد م يتسلخوا ف الشوارع ولكن المغربي شضاب، ومعصي، وعلى استعداد يموت على شلن، وكنا نتمشى أنا والزعيم والملقات التونسي في الفجر من ثلاثة لخمسة، التونسي كان اسمه ملقات لأنه ملقط، يسرق الكحل م العين، وساعتها الناس تكون سكرت تماماً وراجعين البيوت، ونشوف الواحد منهم جي يتطوح، فنلقطه، وطبعاً دا مفيش مقاومة خالص، وكنت بالقط الواحد فيهم من قفاه وأقول له احرص خالص وطلع كل اللي معاك فيطلع بمنتهى الاستسلام. ومرة أنا والزعيم ثبتنا واحد وخذنا منه اتنين وأربعين ألف يورو صرفناهم في أسبوع ع القمار.

وشوية البيسا ترنتا، الجينية رقم ثلاثين في سوماغوسطا، جنب المحطة عدل، ودي جينية الجيي في ميلانو، يبجي الواحد بعربيته الفخمة يلاقي معرض م الشباب العربي: مغاربة وتوانسة ومصريين جاهزين مستعدين، يتفق مع اللي يتفق معاه وياخده جنبه ف العربية وينفذوا ف أي حته، الفقرا م يجوش البيسا ترنتا، موت وخراب ديار، هيتقلب ويتضرب.

خدني ليها توبة، عيل قدي ف السن من أبشواي، وكان مصاحب أم توبة، واحدة إيطالية كبيرة اعتبرته ابنها، بينام معاه عادي بس على أساس إنه ابنها توبة، وإحنا كنا بنقول لها يا أم توبة. وشفت في الجينية دي فتحي الاعرج ببشغل، شغل شغل يعني، صالح بنطلونه ومحنبط بتاعه ومطرطره ع الجينية كلها، فتحي كان عنده شلل أطفال، لما يمشي يسند بايده على ركبته، لكن فيه

قوة تهد جبال. وأنا قرفت م الحكاية دي، وبعدين م تستاهلش، مصيبة سودا وهيا الميت يورو فقط لا غير.

واحنا قاعدين ف السسيوني قبل م ننقل الفيلا جيت من برة لقيت توبة قاعد مع صاحبتة، إيطالية جميلة من شيشيليا وعندها حوالي خمسة وتلاتين سنة، كنت أول مرة أشوفها، وافتكرتها م البنات اللي ببيجوا بفلوس، وقلت له مصلحة، فقال لي لو قدرت عليها، فقلت له طب سيبينا شوية، فخرج، وقعدت معها حكاية ف قصة ف سيجارة وخلصنا.

"واحد"

كانت ليبيا مفتوحة، وكان الزعيم قاد البلدوزر بنفسه ودمر بوابة الحدود مع مصر، وكان الشباب من جبراني وعشيرتي في الفيوم يسافرون بشكل شبه يومي، ولكني سافرت من المنيا، لا أعرف لماذا توقعت إن السفر مع المنياوية أفضل في مسائل الشغل والرزق في ليبيا، لا الحقيقة أعرف أن الفيومية أكسل الناس على الإطلاق، وركبت مع ناجي زميل الدراسة والجيش في ميكروباس تويوتا بالنفر، انطلق من العدة مركز مغاغة، واتجهت شمالاً حتى العلمين وشرقاً حتى السلوم، ولما دخلت ليبيا حُفت، صحراء قاحلة، إيه اللي ممكن أشغله هنا؟ إنها فعلاً صندوق من الرمل كما قال موسوليني، بالتأكد في هذه المنطقة نصب عمر المختار فحه المهول للجيش الإيطالي.

وصلنا بني غازي في آخر الليل، وكانت خالية تماماً، شوارع نظيفة لامعة متسعة ومغمورة بالضوء ولا ترى فيها إلا عيوننا المتلصصة من التويوتا، وفجأة انطلقت سارينة الشرطة وصوت صرخ: "صبي عدنك صبي يا تيس"، واتحدف قدامنا بوكس شرطة، عربية فخمة آخر موديل وتلعت لعط وتثور من كل حطة ولها إريال عجيب، طويل جداً ويتمايل بطريقة عنجھية وكأنه يتوعد الناس، ونزل ضابط أسود في حوالي الخمسين من عمره وعسكريان لا يقلان سواداً وطولاً، وفتح باب الميكروباس بعنف وبص لنا بقرف شديد وقال "ممصخين" وكاد يتف وأظنه تف فعلاً على وشوشنا، ونخس كام واحد بمهماز لامع في يده وقال "دايرينها فوضى كيف مصر! توا نقلكم للغرفة" وبص للسواق بقرف وقال "هيا اتبعني يا ممصخ".

ومشينا وراه، ودخل مركز شرطة، وخذوا السواق ورجع بعد بييجي ساعتين مضروب لحد م طافح الدم، واتضح اننا كسرنا إشارة حمرا، وإنه مجرد درس ليبي بليغ للسواق المصري المستهتر، وطبعاً عشان أحوال السواق وحشرتنا في الميكروباس بيتنا في بنغازي، بيتنا في الخلا في منطقة صحراوية في وسطها، وصحينا ع مطر خفيف، واتجهنا جنوباً إلى زليتن.

ووصلوا بعد حوالي ثلاث ساعات، واستقبلنا أقارب زميلي ومعارفه، أغلبهم بيشتغل في المزارع والرعي في الجبال، والفرصة المتاحة هنا في السوق، في المصدر، تطلع والأرزاق على ربنا، واكتشفت إنهم واقفين في المصدر ذاته لما وقفت سيارة قيطون وهجم عليها جيش الأنفار منهم اتنين من اللي كانوا يتكلمو معنا، وعقدت العزم على السفر إلى سبها، بهدلة ببهدلة فاتبهدل بين أهلي

وعشيرتي. واتجهت إلى سبها.

معركة التوانسة

اتعرفت باسم الباقو في المحطة بعد معركة التوانسة، وكنت باقو بافو، حالق راسي بالموس ومرابي شنبني ولايس تي شيرت إنتر ميلان، ومسمي نفسي صدام المصري، والتوانسة كانوا خمس شباب مستبيعين ومسيطرين على سكان المحطة، وف يوم اتعارك معاهم الزعيم، وواعدهم وواعدوه ع القضبان، وجه أولاد عمه الثلاثة وسحبنا النبابت وطلعنا ع القضيب، وفجأة صرخ التوانسة وهجموا علينا فهرب الزعيم وقرايبه في لمح البصر، وسابوني وحيد وسط خمس سيوف لامعة، وسيف اتاخز ولع في الجو واترشق فوق عيني عدل وم فوقتش إلا في المستشفى، التوانسة افتكروني مت، ولوا عزالهم م المحطة واختفوا، ورجعت وبقيت كابو المحطة، الباقو صدام المصري اللي مخوف الشرطة نفسها.

الصيد اسمه الرسمي إيهاب والشائع محيي، وطوال مسيرته تقلد العديد من الألقاب والأسماء، ولقب "الباقو أبو شنب الأجلح" أطلق عليه في محطة القطر، في الفترة دي يبدو إنه زهق من تميزه، أو من فشله في إخفاء نفسه المفصوحة من النظرة فقرر الاستهبال، حلق راسه بالموس وربى شنب زي جدون العجلة النصر وداوم على ارتداء تي شيرت الإنتر ميلان واتعرف باسم الباقو، حتى الضباط الإيطاليين أنفسهم كانوا مسميينه الباقو.

وتعاملت مع البلتس كرانتا دوا "العمارة 42" اللي هي منبع المخدرات على مستوى إيطاليا كلها، والحكومة مش قادرة عليها، ودي كانت جنبنا ف بورتا روماننا، وهي عمارة قديمة عبارة عن مكعب خمسين متر طول ف خمسمية وعشرين كده ف خمسة وعشرين كده، والباب وخمسة وعشرين وخمسة وعشرين، ومبنية زي المستشفى بالطبط، ثلاث مباني، والمبنى ثلاث ادوار ومتقسم شقق، والشقة عبارة عن أوضة واحدة وحمام، وكل اللي ساكنينها مصريين، ولما كنت شغال ف سوماغوسطا مع المغربي كنت بافرق ع اللي شغالين فيها، وأول م شافوني ف مدخلها اتلموا عليا وبالأحضان، وخدني محمد عليان شيخ العرب اللي فيهم على شقته ف الدور الثالث، وبيت عنده، وتاني يوم اداني 100 جرام هيرويينا، ورجعت ع الخربة وبدأت اشتغل.

زهق الزعيم

قلت إن الروائي النوبلي يوسا كتب روايته الشهيرة "حفلة التيس" عن ديكتاتور في أمريكا اللاتينية، وكل ما حملها من خيالات وخبالات الديكتاتور المجنون لا تقارن بواقعيات الزعيم، ومسيرته اللائقة بنبي أو على الأقل شخص مبروك بأي شكل من الأشكال.

وهو عن نفسه كان يرى في نفسه نبيا، وكان عادة يخاطب رسول الله باعتباره ند أو زميل، وكان له آراء وتأويلات كفره بسببها السلفين، ومنها مثلا ان الهجرة النبوية التي يعتبرها المسلمون عيداً ونصراً مبيهاً، لا يرى فيها الا هزيمة وفرار مخزي من العار التأريخ به، ليمفروض نبدأ وبفتح مكة، وهو شخصياً اتخذ تقويماً عجيباً اسم شهره على البحر والشمس والماء وهانبيال الذي اطله على ابنه هانبيال الهارب الآفي شي بلد.

وكثير من الليبيين كانوا معتقدين إن الزعيم ملموس، وهو صبي يدرس بالصف الثاني الإعدادي اتفق مع زملاء الفصل على القيام بثورة الفاتح وإزاحة الملك السنوسي، هذا ما أخذوه من مصر وثورتها الناصرية وزعيمها القائد المعلم، وهذا ما تم بالضبط: دخل الزعيم هو وزملاء الفصل في مدرسة سبها الإعدادية، ومنها إلى الثانوية العسكرية، ومنها إلى الكلية الحربية، ومنها إلى حكم ليبيا مباشرة ولدة اتنين وأربعين سنة، جرب فيها كل أفكار ونوادير نظريته العالمية المحفوظة في الكتاب الأخضر المحفوظ بحروف من المرمز في البحر المتوسط للأجيال القادمة. "نا ما بنحكم ليبيا، ليبيا تحكمها اللجان الشعبية"، هكذا يقول الزعيم مترجماً الكتاب الأخضر، "انتهى عصر الحكومات والسلطة بيد الشعب"، والجماهيرية العظمى تحكمها الجماهير حسب النظرية العالمية الثالثة، قبل الزعيم كان هناك نظريتان عالميتان في الحكم، النظرية الاشتراكية والنظرية الرأسمالية، وكلاهما فشل، وعلى مدى عقود، حتى ظهرت نظريته العالمية الثالثة المبشرة بعصر الجماهير.

ولكن للأسف نظريته تهاوت تباعاً على صخرة إباء الشعب الليبي العظيم الذي قتله في النهاية: قال لهم أو قالت نظريته "السلاح بيد الشعب" وهي فكرة نبوية حقاً وتصلح حلاً للمأساة والله، انتهاء عصر الجيوش الناهية وبزوغ عصر الجماهير العادلة، ومن هنا جاء الاسم الذي اخترعه الزعيم لبلده الذي أسسه: الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية الشعبية العظمى، ولكن عند التطبيق، وبعدما استلمت الأسر الليبية صناديق السلاح والذخيرة الخاصة بالجيش الليبي وقعت الحرب الأهلية، اترمى السلاح في المربوعات وبقت أي خناقة صغيرة بين جارين تتحول إلى معركة قاتلة بالسلاح الآلي يذهب ضحيتها كامل افراد الفريقين المتعاركين.

وقال الكتاب الأخضر "البيت لساكنه"، وهو حلم إنساني، فجأة الصبح تلاقى نفسك مالك البيت اللي انت مأجره، أو الشقة اللي انت ساكن فيها، وانتهاء عصر المالك والمؤجر، "لا أجراء ولا شغيلة"، لكن لما انتفذ الحلم على أرض الواقع تحول إلى مأساة وحكايات دامية للأسر التي عادت إلى بيوتها وشققها لتجد آخرين بل قل محتلين يرفعون لهم مقولة الكتاب الأخضر وباللون الأخضر "البيت لساكنه".

لكن يظل موجوداً بأي شكل من الأشكال، وآخرها شكل المفكر "أنا ماني قائد ولا رئيس أنا ما بنحكم ليبيا، ليبيا تحكمها اللجان، وما أنا إلا محرض على الثورة"، وما قامت الثورة التي هتف بها طوال تاريخه... لكن هذا موضوع آخر.

وفي آخر أيامه زهق الزعيم من شعبه الأبوي، بدأ يصدق إنهم قليلين عليه أو مش في مستوى تطلعاته، وكان ينهرهم في الراديو والتليفزيون عياناً بيانياً "والله نا احترت فيكم، إنتو ما تستاهلون الأنظمة الوطنية" ويشير إلى صدره "انتو تستاهلون الاستعمار يستعمركم". والحقيقة إن عنده حق في بعض الأمور.. للأسف يعني، أنا عن نفسي شايف كده، وأهو مات عشان الواحد يقول براحته،

العقيد الزعيم بغض النظر عن النتائج والهبل والطغيان الأصلي - كان صادق في ثورته الاشتراكية وتمكين الشعب من ثرواته، ولكن كل أفكاره لتمكينهم من الثروة والسلاح تهاوت على صخرة إباءهم البدوي العتيد.

طبعاً الزعيم نموذج مجسم لانظمة ثورات التحرر الوطني العربية التي طردت الاستعمار وسامت شعوبها بما هو انكي وأشد من أي استعمار، ولكن ليبيا قبله لم تكن بلداً، كانت ثلاث مقاطعات او مناطق وحدتها الامم المتحدة تحت التاج السنوسي الذي كان يحكم برقة فقط، ثم ان نظامه الثوري المبشر بعصر الجماهير تكفل الجماهير من الالف للياء، من المسكن للمصيف على حساب الدولة، والاهم من كل ذلك انه هو نفسه كان محرضاً على الثورة ويدعو الناس لها، هذا منصبه في النظرية العالمية الثالثة، نا ما بنحكم ليبيا نا محرض على الثورة وليبيا تحكمها الجماهير"، ولكن ما ان قامت الثورة الحقيقية حتى قُتل.

بيت العز

وأنا قاعد ف الأوضة اللي نضفناها ف المحطة كنت باشوف تمنية رومان، أربع نساوين وأربع رجالة، بيروحوا يبيعوا سجاير رومانية مهربة ويسرقوا ف محطة سيسيونتي سنترالي اللي هي محطة ميلانو الكبيرة، وآخر النهار يرجعوا ويعدوا من جنب المحطة وينطوا ف السور اللي بعدها ويطلعوا الصبح، وأنا كنت متضايق من نومة المحطة، وضربت سيجارة وفكرت الناس دي بتطلع الصبح وترجع آخر النهار تنام هو فيه إيه جوه؟ ورحت ناطط السور، فلقيت فيلا، فيلا فيلا، فرش وميه ونور وناس عايشين عادي بس قافلين الباب الخارجي، مش باب السور، باب الفيلا الرئيسي ما يفتحوهوش، وبيطلعوا م الباب الوراني وينطوا من ع السور ويخشوا محطة القطر ويمشوا لحد البوابة الكبيرة ويطلعوا منها على السيسيو سنترالي، وكده م حدش يعرف إنهم قاعدين هنا. وأنا أول م شُفتها قُلت دي بتاعتي، الفيلا دي خلاص أنا خدتها، ورجعت جبت توبة وتلاتة من قرابيننا، وشيلنا هدوم الرومان وحاجتهم وطلعناها لهم بره السور ف محطة القطر، ولما جم آخر النهار لقونا قالعين ملط ظلط وكل واحد رافع سنجة آدي طولها، فقالوا لنا بس بس إحنا مش عايزين مشاكل، وخذوا حاجتهم ومشوا.

وقعدنا ف الفيلا شهر واتنين من غير م نفتح بابها الرئيسي، ولما فتحناه لقينا جنينة كلها نجيل، حروفها عبارة عن شجر فيكس معمول على شكل حيطة طولها خمسة متر، وبتجرش فيه بييجي عشر

عربيات بتوع الشركة اللي جنب الفيلا، وورا الفيلا فيه جنينة تانية فيها عنب وبرقوق وتفايح وورد بلدي ونبأ، وف يوم وأنا قاعد ف المغرب قدام باب الفيلا ع النجيل ومولع سيجارة حشيش بصيت لقيت واحد دخل وفتح عربية جيب شروكي م اللي واقفين وركب ولما شافني نزل وجالي، وسألني "بونو كوستل بونو" يعني حلو الحشيش ده؟ فقلت له "تربو بونو" كثير حلو، قال لي "بسوبروفاري" ممكن أجرب؟ قلت له اتفضل، خدها وضرب نص السيجارة واتكيف منها، وقال لي معاك شلو، قلت له سي، قال لي "دا كوننتي" معاك قد إيه؟ فقلت له ماتيتاي إنت مين عشان تسألني؟ فضحك وقال لي م تخافش مني أنا مش بوليس أنا صاحب المكان ده، وكان قاعدين قبلكم رومان وكانوا خايفين يفتحوا الباب، بس إنتو قلبكم جامد يا عرب فتحتوا باب الفيلا وطلعتوا للجنينة، وقال لي عايز ربح وقلت اختبره وقلت له بخمسميت يورو، فقال لي لااا دا الفرش كله بخمسميت يورو إنت هتضحك عليا إوعى تفتكر نفسك يورو، فدخلت وجبت له ربح وقلت له خد بيطلع الفلوس قلت له لا دا هدية مني ليك، دا احنا قاعدين في بيتك يا راجل، فقال لا دا مش بيتي دا بيتك، وخذ الربع ومشني. وإحنا بدأنا نشغل، نجيب الحشيش م الغابة م المغربي ف سوماغوسطا، تدخل الغابة تلاقي اتنين مغاربة مقاييليك، عايز مين قلت لهم رشيد المغربي، راحوا مكلمين رشيد وقالوا له صدام المصري، يقول لهم عدوه. وتدخل وتدفع وتاخذ حصتك وترجع تقطع قرش قرش أو صبا ع صبا ع وتبيع، واستمرينا ع الحكاية دي فترة.

وكان من زبايني واحد حرامي برازيلي اسمه أندريا، واتعرفنا على بعض وبقينا اصحاب، وبقى يجيب لي أحسن الحاجات اللي سرقها آخد منها اللي عاوزه، تليفونات ساعات سلاسل ذهب وكده، وعزمته هو صاحبتة وعزموني ف بيتهم، ورحنا ديسكو، ومرة كنت عندهم وهجت على صاحبتة، كانت بيضا وطويلة وشعرها أصفر وعنيها خضرا وعود ملوش حل وكنا لسه حارقين كوكايين، وقلت له يا أندريا معلش أنا عايز انام مع صاحبتك، ضحك وقال لي قول لها، وقلت لها وقالت لي أنا كمان من زمان عايزة أنام معاك. وخذتها من إيدها وأندريا بيضحك ودخلنا الأوضة، وبدأنا نبوس ونقلع بعض، ونزلت على ركبي وقلعتها الكلوت لقيت واحد ترك ف وشي، أتاريه راجل عنده شضاب قاد كده.

وف الآخر اتقبض على رشيد، كبسوا عليه ف الغابة واتضرب بالنار في رجله واتمسك، ومسكوا معاه 32 كرتونة حشيش ونص كيلو كوكايينا ونص كيلو هيرويينا، تخيل خد كام ف الحكاية دي! خد خمس سنين بس! لأن هناك الحرية تمنها غالي جداً، ولو اتسجنت يحسبوا لك خمسة يورو يومياً، والسجن نفسه يعتبر فندق بالنسبة لسجون مصر، الزنزانة فيها ست أنفار بست سراير، وفيها تليفزيون فيه ألف وستميت قناة تنتفرج على هندي تنتفرج على عربي على قلة أدب زي ما إنت عايز، والذي في دي بيجيلك كل أسبوع يبببب معاك ليلة تشوف فيها فيديوهات عيلتك وأحبابك زي م إنت عايز.. بس ف النهاية هو حبس، وإن كان مصريين كتبير كانوا لما يضيق الحال بهم يعملوا أي حاجة عشان يدخلوه.

المهم اتمسك رشيد وبدأنا ندور على تاجر تاني، ورحنا بندور لقيت اتنين ف عربية بنطوناتو عربية مكسرة واقفة ف الشارع، كنت معدي ف الشارع شميت ريحة حشيش، فجيت مخط عليه فراح فاتح قلت له مرحبا مصري؟ قال مصري فقلت له منين قال م الفيوم فقلت له جيب م الآخر قال من تطون قلت له أنا م الغرق، وإيه اللي منيمك كده، قال والله لسه طالع م السجن ومش لاقى مكان أنام فيه، فقلت له طب لم هدومك وتعالى.

وخذته معايا الفيلا، وقعدته معايا أنا وحازم وتوبة ف الفيلا، ساعتها كنا بنط من ع السور، ودخلت

أنا وصاحب البيت مع بعض وهوب اداني مفتاح الباب الصغير، باب الجراج الكبير بتاع العربيات وفيه باب صغير خدنا مفتاحه وبقينا ندخل منه.

وف مرة اتعرفت على واحد تاني اسمه أشرف أبو ناعسة من تطون برضه، وكان مدمن كوكايينا، بيحرق كوكايينا كثير، ورغم إنني انا اللي جايهم كنت باخاف منهم، أنا باصحي بدري، مهما سهرت أصحى بدري، لأنني كنت باتمنى أمنية واحدة ف حياتي هناك، من شغل الخرب والخوف والمخدرات، كنت باتمني وأدعي وأقول يا رب قبل م موت إنني أنام ليلة واحدة من غير خوف، أتكيف بالسجارتين وأقعد أعيط وأنا قاعد ف الخربة لوحدني أعيط م اللي أنا فيه، لازم يحصل كده، مينفعش أعيش غير كده، أنا م اعرفش أعيش غير كده، هاموت، لو دخلت إنني راجل شريف وأعيش ف الكنيس وم اشتغلش حرام وأموت، أنا أعرف ناس كثير م المصريين، الواحد منهم من ساعة ماجه م بيشتغلش حرام، هو من ساعة م بيقوم م النوم الصبح بيخطر ف الكنيسة ويتغدى ف الكنسية، ويجيب لبسه م الكنيسة، يعني عيشة م يعيشهاش الكلب، أنا م اعرفش أعيش العيشة دي، ومش محيي أبو موسى اللي كان عفريت ف مصر يعرف يجيب القرش حتى لو من السرقة اللي يعيش العيشة دي، فدخلت ف المخدرات ورحت، كنت باقعد مع نفسي واضرب سيجارتين الحشيش وأبص ف السما وأعيط، أعيط من الخوف ع السلعة بتاعتك تتسرق م الغابة، خايف م الحكومة تطب عليك مرة واحدة وتلاقي معاك سلعة وتخش الحبس، خايف أي مغاربة أو توانسة يخشوا عليك بالسواطير والسكاكين يثبتوك، عشرين ثلاثين واحد هتعمل لهم إيه؟ إنت قاعد ووراك بالظبط خرابة فيها الدنيا كلها، مغاربة وأفارقة وألبانيز ورومان ودنيا، والمكان اللي احنا قاعدين من يوم م طردنا منه الرومان والعين عليه، فيلا وشكلها رائع، وإحنا م كناش بندخل من باب السسيوني محطة القطر، وفتحنا الباب الخارجي ع الشارع على طول.

كنت باضرب السجارتين وأقعد مع نفسي وأحس إنني أنا مش عارف، عايز أروح ومش قادر أروح، ما انا م عملتش حاجة، وكل اللي بتاخده بينصرف ع المخدرات، وم بعثش حاجة لأهلك ترجع عليها، هترجع على إيه؟ وخلص سنك كبر هتروح تعمل إيه، وتبقى نايم ف الخرابة دي قلقان، قلقان من كل حاجة، غربة ومالكش ظهر، والحشيش هناك بيخليك تجيب حاجات م تخطرش على بالك، طب أنا لو اتقتلت هنا أهلي هياخدوا تاري كيف؟ ومن مين ومين هيعرف أساساً؟ هاروح فرق كيل، كلب وراح.

مشاحنات عویدات

أخيراً افتركت اسمه، عویدات الحسناوي صاحب الورشة، وكان راجل طيب جدا وحاد جداً، وكان طويل ورفیع وأسمر ومنحني شوية وناظر على المعاش، ونوع من الليبيين كانوا بيعتبروا الزعيم وقادة ثورته مجموعة من اللصوص ولكن في "بطنه" وبدون ما ينظ قدام أي حتى لو صاد شين، ويعتبر نفسه وقبيلته الحسناوية أصحاب سبها ويمتعض من الهمج اللي احتلوها، ويمتعض أكثر من القدافة وأكثر وأكثر من الزعيم لكن في صمت، يتمخض أحياناً عن حدة وعدوانية وتحفز لا مبرر له، وكان يكره الصاد شاين، "الليبيين المزيفين الهاملين ف البلد، دايرين ارواحهم لبيبين وهم لم في مصر، لوم كانوا لم م كانوا سابو مصر وجونا"، وكراهيته لهم كانت تتمخض عادة عن تلسين على مصر نفسها، وأول ما يؤكد عليه إن مصر لم تذكر في القرآن، "مصر المذكورة في آية اهبطوا مصرا مصر غيرها، وهي لا تعني مصر وإنما أي مصر، وبعدين مصر مش أم الدنيا، منو اللي قال لكم إنها أم الدنيا.. وسخافات من قبيل "طيب مان هو بوها قول لي هك؟"، وطبعاً معاهدة السلام والخيانة الكبرى، وعلى طول ينضم ليه عبد العزيز وعبد السلام، "وم تعرفش الناس دول اتربوا كده إزاي، الحماس الشديد لدرجة الموت أحياناً للقضية الفلسطينية والسكوت التام حتى التواطؤ والخزي عن القضية الشخصية، الحرية والأمان والاستقلال الذاتي، الشعوب العربية جمعاء ظلت نصف قرن تكافح في سبيل القضية الفلسطينية وهي محكومة عادي بأغبي وأفضل استبداد شهده البشر في العصر الحديث.

وعلى طول ينضم لعویدات عبد العزيز وعبد السلام وتتعمل محكمة لمصر في المطعم، لكني كنت أفحمهم، أنقض بمنتهى الحدة والغباء والرغبة في التعالي والإيذاء، كراهية مصر هي الشعور الطبيعي للبدائي تجاه الحضر والمدينة، المتخلف تجاه المتقدمين، أبناء الشارع الأفقر لابنه الوحيد الأغنى، وأمعن في معايرتهم بالديكتاتورية والقمع والغرفة والملك اللي بيسجدوا له لحد دلوقت. المهم في يوم صحي عویدات الصبح لم يجد الورشة، "كنت سبت الورشة والمطعم، وهادي باعها وكنت على تونس"، باع كل المعدات وعربيات الزباين، وهذا عادي جداً في ليبيا، لا أقصد السرقة وطريققتها فهي تونسية تماماً، أقصد سهولة بيع هذه المسروقات حيث تجد من يشتري منك عادي جداً مدرعة للقوات المسلحة، واثنين من أصدقائي الصاد شين باعوا الشاحنتين العسكريتين اللي كانوا بيسوقوهم في الجيش وسافروا إلى مصر ورجعوا عادي جداً، رجعوا لليبيا ورجعوا للجيش نفسه لما وسطوا ضابط من القدافة.

المهم عویدات جاء في زيارته الأسبوعية للورشة ولم يجدها فجن، "وكان المتوقع أن يجن شوية ويهدى ويستعوض ربنا"، لكن عویدات العنيد صمم، وركز وسافر خلف الهادي تونس، وسأل حتى جاء به من بيتهم، واستلم كل ما سرق بعلاقاته القبلية دون أي معونة أو حتى خبر للسلطات المختصة.

بيسا ترنتا

المهم بقي معايا ف الفيلا حازم وكريم وتوبة وأشرف أبو ناعسة، وبعد م اتمسك رشيد جُعنا تقريباً، وف يوم قابلت واحد تونسسي م اللي قاعدين جنبنا ف المحطة وقال لي على مصنع جنبنا هنا ف الغابة بيسرقوا منه نحاس ويبيعوا الكيلو بعشرين يورو لواحد بتاع روبايكيا بيقبضك وانت واقف. وف الليل جمعت الشلة وسلمت كل واحد كاتر ومنشار وشنطة سفر كبيرة ورحنا، ونطينا السور، ولقينا مصنع عربيات كبير وقديم ومتكهن، وفيه كابلات نحاس كبيرة، نزلنا عليها بالمناشر والكاترات طول الليل، وع الصبح كل واحد ملا شنطته سلوك، وجرينا الشنط، وناولنا بعض من ع السور، وركبنا الأتوبيس ووصلنا لبتاع الروبايكيكيا وهو يفتح الصبح، ووزن وقبضنا. وعشنا ع الحكاية دي بتاع شهر، كل ليلة الواحد يطلع له ببتاع خمسميت ستميت يورو يروح يصرفها ع المكن والكوكايينا. وف يوم جالي حاتم أبو المراز وقال لي إنه شاف علي بلحة اللي بيمون البلتس 42 بالمخدرات بيرفد في حاجة ف التربة. ورا المحطة فيه طريق، وبعد الطريق فيه عمائر وناس ساكنة في منطقة هادية خالص، ووسط العمائر فيه ترعة طالعة عليها حلفا كثيفة وشجر، رحنا أنا معاه وفتش ف زبالة تحت شجرة ولقي لفة، خدناها ولقينا ف الغابة ورجعنا الخربة وكنا نحسبها كوكايينا ولقيناها نص هيرويينا، واحنا م نعرفش ف الهيرويينا لا بيع ولا كيف، وخدناها ورفدناها ف الغابة ونسيناها.

وبعدين اتعرفت على واحد مغربي ف كارلو فاريني، واتكلمنا ف سلعة وما سلعة وم معيش فلوس فقال لي تعالى وأنا هاديك وتسدد بعد م تصرف، وخذت منه أول مرة فرش حشيش وسدته، وتاني مرة فرش وخسرته على مكنة القمار وم رضيش يديني، وم كانش قدامي غير بيسا ترنتا.. بيسا ترنتا الجنيئة رقم عشرة قدام بيت العز بعد سور المحطة، ودي معروفة إنها مكان لقاء الجيي في ميلانو كلها، وطول النهار بيتمشى فيها المغاربة والتوانسة والمصريين يعرضوا نفسهم عليهم، وييجي الواحد منهم ويلف بعربيته ولما يعجبه حد ينده له ويركبه جنبه ويتفقوا ويمشوا ينفذوا ف أي حطة. ومرة وأنا راجع م البار لقيت فيها فتحي الأعرج ساند ع العكاز ومطلع بتاعه ومحبطه وبيزه ع الملاء، فرحت له وعملت مغربي إيش بيك، وخاف وقال لي يا صاحبي دا شغل، قلت له برا نيك ومدرش هك تاني باهي؟ قال لي باهي وف الليلة لقيت توية جاييهولي ف الخربة.

ومرة لقيت فيها واحد وواحدة بيلفوا ف عربية، ولسه بفكر دول إيه اللي جابهم هنا شاوروا لي، وركبت معاهم، واتلفت لي الراجل وسألني بتاعك كبير، قلت له وإنت ما لك، قال لي الست دي مراتي وعازية تتناك، طب م تنيكها! لكن أنا باحب اتفرج عليها وهي بتتناك، واتفقنا وخدوني، خدوني ف شقة فخمة جنب كنيسة الدومو، وشدتني بسرعة ولهوجة على أوضة النوم وخلصنا وهو بيتفرج علينا م الخرم، ولما طلعت لقيته عرقان وبدل المية اللي متفقين عليها اداني ميتين.

المهم اتفقت مع الجماعة، وفردت صدري واتمشيت ف بيسا ترنتا، ووقف واحد بعربية جولف موديل سنتها، وكام م كام واتفقنا على مية يورو وركبت معاه، وقال لي تعرف مكان وقلت له ع المكان المحدد ورا العمائر في لسان في الغيطان جنب العشة، وعلى م نور صالون العربية وبدأ يحسس عليا هجم الجماعة، وثبت ثبت وقلبونا وهو مرعوب، حاولت أقاوم قال لي إديهم إديهم، وخذوا منه ألفين يورو وساعة وسلسلة وموبايل، وقلت له خدوا مني خمسميت يورو والساعة والموبايل، وعدى على مكنة بنك وسحب منها ألفين يورو واداهم لي، واتفقنا نتقابل عنده ف الشقة، وخدنا تليفونات بعض. وانسى،

م عدتش شفته تاني، ورجعت ع الجماعة وقسمنا الفلوس على بعض.
والموبايل خدته وطلعت ع المغربي ف كارلو فارينو، وقلت له يخصم الفرش اللي عليا ويديني فرش
جديد، وشد درج كومدينو متستف حشيش، فيه م يقلش عن ثلاثين فرش، وحشر فيه الموبايل واداني
فرش، وجيت هانزل قال لي استنى أنا نازل معاك عندي مشوار في لوريتو، وطلعنا م العمارة وهو
ركب تاكسي وأنا رجعت على محمود الصعيدي اللي كان مستنيني ف الجينة، واتشاورنا ف
الموضوع ورجعنا على عمارة المغربي، ووقفنا قدامها لحد م طلع واحد م السكان وعملت إنني باتكلم
ف التلفون وقلت "خلاص خلاص م تفتحش فيه حد خارج" ودخلنا.
العمارة على ثلاث شقق، والمغربي ساكن ف الأولاني، ورجعت لورا وهي خبطة واحدة ع القفل عدل
ووقع الباب بالحق، وجرينا على درج الكومدينو وعبيننا الحشيش والموبايل ومية وخمسين يورو
ولكميدة كبيرة م عرفتهاش ونزلنا نتلبد.
محمود كان قصير تلتين كده ولابس ترنج وشبه الأطفال، ومشييته قدامي بالشنطة لحد محطة المترو،
ووأنا لسه باقطع التذكريتين لكورس اللودي لقيته نط من فوق مكنة التذاكر وركب المترو اللي طالع وم
لحقتوش، وركبت اللي وراه، وطلعت ف كورس اللودي، وكان فيه شرطة كثيرة، وخذت طريق مختصر
لبيت العز ووصلت قبله، ولما جه ونده عليهم جريت عليه وكتمته، وخذته للجينة وطلعنا منها فرش
ودفناها بالباقي، وقسمنا الفرش على الجماعة، واللكميدة اللي م عرفتهاش طلعت نص كيلو
كوكاينا.
ومرة طلعت لوحدي، وقابلني واحد واتفقنا وقلت له كلمني بعد م أخلص شغل، ورحت جبت ساطور
وحشرته ف ضهري وكلمني، وخذني لمعرض موبيليات ف لوريتو على أساس نخلص مع بعض
ويديني مية يورو، وعلى م قرب مني ضربت إيدي ف ضهري وسحبت الساطور وثبته، وافتح الخزنة
دي، وفتح وطلع أربعين ألف يورو خطفتهم منه، وقلت له ولا حركة، وقلت ف الشارع وغيرت شريحة
التليفون ومعدتش شفته.

* الصيد

ورشة عويدات كانت أشهر ورش إصلاح السيارات في الحي الصناعي كله، وكانت ناجحة وواسعة
ومزدحمة بالسيارات طول الوقت، وكان فيها عبد العزيز الأسمر المغربي أشهر ميكانيكي في الحي
الصناعي وعبد السلام الأبيض المغربي أمهر سمكري في الحي الصناعي. عبد العزيز كان
بربري، أسمر ومليان وعفي وداير لحية خفيفة ومستعد للقفشة والضحكة، وعبد السلام عربي،
طويل وأبيض وجههم وغبي أحياناً، وعرفت منهم إن علاقة العرب بالبربر في المغرب زي علاقة
الفلاحين بالعرب أو النوبة والحضر في مصر ولكن على أحد وأشرس قليلاً، ومن نكاتهم الشائعة أن
عربياً مغربياً تباهي على بربري مغربي قائلاً إن رسول الله عربي فرد البربري بأن الله نفسه
بربري، وكانوا بيتحدوا علي والهجوم على مصر، والسبب معاهدة السلام، معاهدة السلام عملت
صدمة للشباب العربي، والسبب مصر، هبت عليهم وعلى مدى ربع قرن بأطنان الأغاني والأفلام
الواعدة بسحل إسرائيل وتخوين لأي تواني في سحلها وبعدين خانت القضية وتغنت لخيانتها
"بالسلام احنا بدينا بالسلام"، لكن هذا لا ينفي غرابتهم، هم والمصريين انفسهم، الشعب العربي

عموماً، ظل نصف قرن يثور ويقلب الدنيا على القضية الفلسطينية ولا ينطق على الجوع والخزي والإهانة في بلده وموطنه وبيته نفسه!!

المهم الهادي التونسي كان مأجر الورشة من عوידات بالمعدات والمطعم، والهادي كان في حوالي الثلاثين من عمره، وكان شبه الصيد، التعلب، حتى جسمه ومشيته كان منحني للأمام وتحسب إنه مستعد للجري أو القفز أو الانقضاض في أي لحظة وعلى أي حاجة، ودائماً بالكسكسة ومطبخ في الأرض وكلامه قليل، "وتحس إنه قعد الفترة اللي قضاها في الورشة بيخطط لسرقتها والكتتان على تونس".

ولكن كل خميس ينزل سبها ويجيب التموين والخمور المهربة وبنتين تشاديات طوال وفي لون النحاس الأحمر، دائماً تشاديات وطوال ولونهم في لون النحاس الأحمر. والمطعم كان في مدخل الورشة، وفرح بنجاحه، وكان ينزل بمنتهى النشاط كل خميس ويجيب كل ما يحتاج إليه، وكانت النزهة الوحيدة في سبها، لا يوجد غيرها إلا التلصص على بنت المكتبة والتقليب في الكتب لا لشيء إلا إطالة الإقامة معها، والتأمل في أحراش قصر الثقافة، قلعة للثقافة فيها السينما والمسرح لكن مهجورة من سنين، وتحس إن سبها كلها هكذا، مدينة عصرية جداً بحدائق ومنزهات ومسارح وسينمات لقوم همج، الكثيرين منهم هربانين أساساً من شظف الصحراء، الحدائق عملوها مراعي، ونظرا لوجهتها الرسمية وأسوارها الأنيقة ويفطها اللي تسد عين الشمس استبدلوا الرعي المباشر بالحش، وسرعان ما عرف كل واحد منهم حنته التي يحش منها، وكانت هذه العملية أحب نزهة في سبها بعد تسويقة الخميس مع الهادي. كان لي نزهة في الجبال مع الموريتاني وسيارته النقل الفيات الخضراء، ولكن النزهة هنا أرق **وأنسن نسبة للإنسان** - في وسط سبها، وكنت كل أسبوع سارح مع صديقي محمد الطارقي الأسمر الرفيع في رحلة الحش لا لشيء إلا التفرج على الحديقة والناس، وكانا بنحش من الحديقة الكبرى في سبها أمام البنك الأهلي في قلب سبها، ودي كانت مرتع فعلاً، لا يفرقها عن الغابة إلا السور واليفط، وكان زملاء لنا يراعون فيها بماشيتهم مباشرة.

وغير الحش كانت البنت، بنت المكتبة، مكتبة في سبها كانت بتجيب الجرايد المصرية، وكان فيها بنت ليبية جميلة، والبنات الليبيات جميلات أساساً، هذا انطباعي، أتوقع أن البنات الليبيات جميلات، لهجتهم نفسها لها وقع كالموسيقى، وهذه جميلة جميلة، وكانت تبدو كأميرة متوجة في شرفة المكتبة، وكنت أضرب المسافة من حي الطيوري حتى المكتبة في وسط سبها لأراقبها بالساعات من بعيد لبعيد.

والمطعم كان أصلاً دكان للسجاير للورش، وأنا اشتغلت فيه وهو دكان وأضفت إليه الطعام، في الأول سندوتشات الجبنة والبيض المقلي، وبعدين صرت أقدم وجبة مطبوخة، ونجح المشروع، وما سر نجاحه أن زبائنه كانوا صنايعية وزملاء ويعرفوا بعضهم، وكلهم أغراب، "اللي جي من السودان واللي من غانا واللي من مصر، والسيادة بينهم واللي مبلطج حتى على الحكومة فعلاً العائد من تونس"، قدادفة تونس كانوا الحكام الفعليين لسبها، وظلوا يبطلجوا عليها عياناً بياناً حتى حررها الزعيم بنفسه.

وكانت الوجبة واحدة لا تتغير بطاطس باللحم، وتوكل بالعيش مع شرائح الطماطم والبصل والفلفل المخلل في البيت، وكل من يحبون الفلفل المخلل يعرفون الفرق بين تخليه في البيت وفي المعمل أو المصنع، أو المطعم، وكان بيعجب الزباين جداً، وذاع صيته في الحي الصناعي كله، وهادي دعمني بكل ما أطلب، ورفع أجري ثلاثة أضعاف مرة واحدة، وفي نفس اليوم تقريباً تعارك ابن خالتي،

"كان بيشتغل مساعد سمكري وفجأة طلبت معه سمكري مستقل وهادي م قبلش وطرده"، وجاءوني هو والحسنوي وقالوا لي انت في غربة هنا "واقعد وسيب ولد عمك" لكني صممت على ابن عمي، أو هو اللي صمم عليا واعتبرها خيانة .. المهم لحقته في ورشة أبو الهلب.

سان فيكتوريا

واتعرفنا على علي بلحة المصري اللي بيتاجر ف الكوكايينا والهيريويينا، وبقينا ناخذ منه بالكيلو واللاتين ونبيع ف العمارة والجنابين، وكترت الفلوس وبقينا نلبس أحسن لبس وناكل أحسن أكل وكل يوم ع البارات والمكن، وصاحب البيت بييجي لي كل أسبوع ياخذ الربع حشيش ويمشي، ومرة طببت علينا الحكومة وهو لسه ماشي، وكان معانا سلعة، ولسه بيوقفونا ويفتشوا البيت رجع جري وهو بيصرخ هي هي هي، إيه اللي بتعملوه دا بيتي وإيه اللي دخلكم فيه، قال له رئيسهم دول شغالين ف المخدرات، قال له إنت مش من حقك تدخل البيت إلا بعلمي ومن خلالي واتفضل لو سمحت. وفعلاً مشبوا وسابونا بكيلو الكوكايينا اللي كان تحت رجلهم.

وابتدينا كلنا نحرق كوكايينا، نوزع النص ونحرق النص ف المعمل، تحت الفيلا فيه بدروم ليه سلم مكسور، تبص فيه تلاقى زباله وريحة فظيعة، لكن تحت فيه أوض، وكنا بننزل له بحبل وخليناه لضرب الكوكايينا، ومرة واحنا بنضرب فيه أنا وأشرف أبو ناعسة وتوبة اتصل بأبو ناعسة زبون كان لسه واخذ منه جرامين كوكايينا وعاييز جرامين ثاني، وأشرف قال لتوبة اطلع الحمه ف بييسا ترنتا، واداله تليفونه عشان الزبون يتصل بيه، وخذ توبة الجرامين ف بقه وعلى م وصل الجنينة لقي الشرطة مستنياه، أتاري الزبون اتمسك بالجرامين والشرطة خيرته بين القبض عليه وبين إنه يتصل بأشرف ويطلب منه ثاني، وطبعاً اختار يقبضوا على أشرف متلبس، وأشرف كان مسمي نفسه جيمي، ومسكوا توبة وقالوا إنت جيمي وقال لأنا مش جيمي، فضربوا على تليفون جيمي فرن ف جيبه، وخدوه ع الحجز واتحاكم وخذ تمن شهر.

وأنا كنت بابيع ف الجنينة والبلتس 42، وكانوا خطر، والحكومة ممكن تطب ف أي وقت وتمسك متلبس، وكنت بأور طول الوقت على مكان أمن لحد م لقيت بار ف برورتا روماننا، تقولش اتعمل مخصوص عشان تببيع فيه مخدرات وإنت مطمئن، عالي وعامل زي بلكونة مفتوحة على الجنينة وليه سلمين كبار وإنت فيه تشوف كل اللي طالعين عليهم، وقدامه عدل نافورة قديمة متغطية بالحلفا، وتقعده ومخدراتك ف إيدك وإن جت الحكومة تروح رامي الحاجة ف النافورة وتقعده عادي خالص، وقبل م اكتشفه م كانش يعرف المخدرات.

وكان بيشتغل يومياً، ويوم الاربع بيبقى مولد ويتملي بالشباب على آخره، ويبقى شرب ورقص للصبح، وكنت أجيب النص حشيش وأقطعه وسطيهم وأبيع لحد ما اتعرف إن البار دا بتاعي، وف ليلة شربت فيه أنا وحازم ورجعنا سكرانين طينة، وكان معايا قزازة ويسكي باشرب منها بروجي ف الشارع، وواحا بنعدي من بيسا ترنتا قابلنا عيل تونسسي وقال لي ممكن تديني شربا خويا قلت له لأ، كنت قرفان منه عشان بيركب في الجنية، قال لي إيش بيك تتمنيك يا مصري، قلت له أنا اللي بتمنيك يا ابن الوسخة، ورميت القزازة وطلعت الموس وهجمت عليه وشييط جيت فاتح وشه، وغطاه الدم وجري، كنت يومها لابس تي شيرت الإنتر ميلان وشكلي بالشنب والقرعة مميز جداً، والعيل وقف بعيد ف آخر الجنية واتصل بالشرطة، وأنا قعدت ف مكاني سكران طينة، وحازم يقول لي يلا الشرطة هتيجي يلاً هيقبضوا علينا ويشد فيا يلاً ومفيش يلا. كان بيننا وبين بيت العز يادوب شارع، تطلع م الجنية وتعدي شارع أسفلت تخش البيت، لكن أنا صممت م اتحركش من مكاني لما اشوف التونسي ابن الجزمة هيعمل إيه، ولما عُلب فيا سابني ومشني، وبصيت لقيت عربية الشرطة جايه، وقمت وجريت ناحية سور المحطة، ووأنا بانط عليه يادوب صوابعي مسكت فيه وضربني واحد بدبشك الطبنجة ف دماغي ضربة عملت فيها بورة لسه قاعدة لحد دلوقت، وأغمي عليا ووقعت، وشالوني شيلا بيلا وحطوني ف العربية، ولما فُقت لقيت نفسي ف أوضه لوحدي على سرير ف القسم ومش فاكر أي حاجة.

وتاني يوم الصبح خدوني على المحكمة، ولقيت نفسي متدبس ف قضية سرقة بالإكراه، التونسي قال إنني ثبته وضربته بالمطوة وخذت منه ميتين يورو وساعة وتليفون، وقوموا لي محامية اسمها ماريا بيانكا، يعني مريم البيضا، واتحجرت شهرين على ذمة القضية، ونقلوني لاستقبال سجن سان فيكتوريا، وفنش قلع صور بصم وسلموني بطانية وملاية وكوباية وسرفيس، ودخلوني زنزانة مع أربعة مغاربة وواحد مصري وفيها تليفزيون وريسيفر، وقضيت الشهرين، طول الليل كوتشينة ودومينو وشطرنج وأفلام سكس، وكل صبح تتغير الملاية وكل أسبوع تتغسل الهدوم، وم الساعة واحدة للساعة خمسة فسحة ف جنية كبيرة جداً وحواليها سور عالي فوقيه عساكر رايعين جايين بالآلي.

وبعد الشهرين قدموني للمحكمة، واخترعت قصة، قلت لهم أنا ساكن ف البلتس 42، وشغال ف المعمار، والتونسسي تاجر مخدرات واتعرفت عليه ف لورتو من ييجي خمس شهور، وبقينا أصحاب، وفي يوم وأنا داخل البلتس لقيت جماعة مصريين ماسكينه ومطلعين عليه امواس وبيحلفوا هيقتلوه عشان خد منهم مخدرات بخمسميت يورو وم سدهاش، ولما شافني استغاث بيا وقال لي انقذني يرحم والديك، ورحت وسلكته منهم ودفعت الخمسميت يورو، وبعدين طالبتهم بيهم أكثر من مرة وم فيش، وف آخر مرة، يوم الخناقة، قال لي برة نيك ملكش عندي حاجة، واتنرفزت وضربته وجت الشرطة وقبضت عليا. وطالبت يواجهوني بيه، واتأجل الحكم ثلاث شهور للمواجهة ورجعت على سان فيكتوريا.

وهناك بيدولك برشام عشان تنام وم تعملش مشاكل، وأنا أدمنتته، مهدئ قوي ويعمل دماغ، وكل م يخلص أعمل مجنون وأزعق وأتخانق مع الحراس وأسب لهم فيدولي، النقط أبيعها والبرشام أنكف بيه.

واتقضوا الثلاث شهور، وم جاش التونسي يواجهني، وأثبتت المحكمة إنه تاجر مخدرات وهربان من حكم تمن شهور، واتأجل الحكم ثلاث شهور تاني، وهجت ف المحكمة وشتمت الحراس والقاضي نفسه، وف السجن بقيت أعمل كل يوم مشكلة، مرة أضرب لي مغربي ومرة أرمي سرفيس الأكل في

وش العسكري اللي جايبة ومرات أرفض دخول الزنزانة بعد الفسحة، ولا نافع فيا لا برشام ولا نُقط، واتفرفت ف السجن، البافوراح والبافوجه. وأخيرا جت الجلسة بتاعتي يوم 27 رمضان، ف ليلة القدر، واتوضيت وصليت ركعتين لله ودعيت وقلت يا رب انقذني إنت عارف اني م سرقتش. وخدوني ع المحكمة، والقضايا الكبيرة اللي حكمها من خمس سنين لفوق م بيحطوكش ف القفص ولا بيدخلوك قاعة أساسا وإنما مكتب صغير تلاقي فيه القاضي، وأنا طبعا سرقة بالإكراه، وخدوني أنا والمحامية لمكتب وانتظرنا قدامه شوية ودخلونا، وقعدت أنا والمحامية وبيننا المترجم، وقلت للقاضي إنني بريء وواجهوني بالتونسي، وهاكمل قال لي انتظر برة، وخرجت وقعدت أغلي ويا رب يا رب، أقل حكم ف قضيتي خمس سنين، وأخيرا بعد م طلعت روجي خرجت المحامية وقالت لي براءة، وطرت م الفرحة وحضنتها وطيرتها لفوق ولقمتها، ورجعت سان فيكتوريا وخذت حاجتي وسلمت على اصحابي، ووانا طالع قابلتني المدير، كانت عرفاني م المشاكل، وكانت ولية راجل، راجل راجل، شعرها أكرت وطويلة أطول مني وجرمة، وسلمت عليا وقالت لي إوعى ترجع هنا ثاني. وخرجت.

خطأ تاريخي

هناك خطأ تاريخي رسخ إن وحدة مصر في وادي النيل، بينما وحدة مصر الحقيقية في الصحراء حيث ليبيا، طبعا هناك الاستعمار وهناك المنفعة الواضحة في النيل شريان الحياة (ثبت أن السودان غير مفيد بالمرّة في هذا الشأن إن لم يكن مضراً) **لكن السودانيون يختلفون عنا حتى في اللون واللسان**، بينما الليبيون يعتبروا مصريين، مجموعة من القبائل لأغلبها امتدادات في مصر، و**أول حزب سياسي في ليبيا كان على رأس أهدافه ومطالبه الانضمام إلى مصر**. لكن مصر دائماً تتحد وتحاول الاتحاد مع السودان وكان الأولى بها الاتحاد مع ليبيا، مصر اتبعت الجغرافيا، ليس الجغرافيا وإنما النيل فقط، وكان الأولى بها أن تتبع الإنسان وتتحد مع الإنسان، **أن السودانيون يختلفون عنا حتى في اللون والملامح** وبعدين ضاربين بوز، وضغينة أو اشمئناط أو أي حاجة غائرة ولا يمكن استئصالها، أكاد أقول لك لا يوجد سوداني فيك يا سودان إلا وضارب بوز على مصر حتى محبيها وزبدة نخبتها وفنانيتها... والليبيين هم نفس الإنسان ونفس اللغة ونفس الهم والاهتمام، ونفس المطرب والأغنية والفتوى والشيخ والحادثة العابرة.. ليبيا قطعة من مصر فعليا وعلى أي مستوى من المستويات، **وليس من قبيل الصدفة أن أول حزب سياسي في ليبيا كان على رأس مطالبه الانضمام إلى مصر**، وأن كل التيارات السياسية التي مرت على ليبيا في العصر الحديث عبارة عن تكرار حرفي لما مر على مصر بما فيها الزعيم الذي ما هو إلا نسخة ليبية لكن مهلهلة من الزعيم المصري.

ويقول جمال حمدان إن الذي نشر اللغة العربية هم السعادي من بني سليم، وهي قبائل نجدية استقرت في مصر أيام الفاطميين وانتقلت إلى ليبيا في أجواء فتنة المعز بن باديس الذي خلع طاعة

الفاطميين ودعا للمذهب السني على منابر تونس.

بيت العزّ

وطلعت على بيت العز، وعلى م دخلت صرخوا أبو جليل وخذوني بالأحضان وبقي دا يرمي فلوس ودا يرمي فلوس، وخذوني ع المعمل وحرقتنا كوكايينا لحد م بقيت ف السما، ولقيت معاهم ناس جداد منهم الزاير والمقيم، صاحبت فيهم أحمد عمارة من رشيد، ولقيت بيت العز غير بيت العز، أشرف أبو ناعسة اللي بقى الكابو مكاني حبرتي، يلعب بالبيضة والحجر، وخلا بيت العز مركز لتجارة المخدرات في ميلانو كلها، البلتس 42 قلعة المخدرات في ميلانو بقى جنبه ولا حاجة، والتجار الكبار زباين زي أي زباين بيجوا ياخذوا حصتهم من بيت العز. وأول م دخلت لقيت علي بلحة اللي كان بيمونًا قبل م اتسجن فاتح شنطة فيها تلتاشر كيلو هيرويينا، وفلوس بتتعد قدامك بالآلاف، وناس بتيجي من باليرمو ونابولي وروما نفسها عشان تاخذ سلعة من بيت العز، والكل شغال ف المخدرات، حتى فتحي الاعرج اللي كان قاعد يستنى الجيي ف البيسا ترنتا اشتغل ف الهيرويينا وبقي ليه زباين وعنده عجلة بيلف يوزع عليها طول النهار والليل، وغير أبو الذهب سكنوا ناس جداد م اعرفهمش، وجابوا اتنين نساوين رومان وسكنوهم ف البدروم اللي ف وش بيت العز واللي عملناه معمل للضرب بعد كده، أم توبة وأختها، واحدة شغالة شحاتة والتانية شرموطة، ويطلعوا كل يوم الصبح ع السسيوني سنترالي، اللي بتشحت تشحت، واللي بنتشرمط تتناك لها مرتين تلاتة وتعمل لها بتاع خمسميت ستميت يورو، ويرجعوا آخر النهار متحملين بما لذ وطاب من أول الفراخ واللحمة لحد البيرة والنبيت.

والكابو أشرف، وأشرف حكى لهم عن أبو جليل اللي هجّج التوانسة وطرد الرومان وعمل بيت العز والكل جي على حسه، واشتغلت معاهم، وجبت خط تليفون جديد ورجعت زبايني القدام، وأشرف اداني كام زبون من عنده، وكنا بنجيب الكوكايينا من هلال الفيومي والهيرويينا من علي بلحة، وجريت الفلوس وبقي السهر ليلاتي، أبيع وأشرب وألعب قمار ع المكن، واتعرفت على جماعة رومان ساكنين ف محطة القطر، واحد اسمه ألبرتو مشغل معاه أربع نسوان ع الطريق، وكنت باجيب قارورة النبيت اللي خمسة لتر وصبا ع حشيش وأسهر معاهم، وأعين على واحدة أخذها ف أي أوضة وأخلص معاهها وأديها أو م اديهاش، هما جاين أساسا عشان كده، الرجالة ف التهريب والسرقة والنسوان ف الشرمطة، وأنا كنت مسيطر ع المنطقة والكل بيخاف من البافو صدام

المصري، ولما قربعت معانا وبقينا مش لاقين ناكل رحتم لهم وثبت ألبرتو، كنا اصحاب وم كانش مصدق وقال صدام م صدام قلت له اخرس وخذت منه ميتين يورو، وجبت الجماعة وخذنا كل اللي عندهم ونمنا مع النسوان، وبعديها خد نسوانه وقلب م المنطقة وم رجعت تاني. وهب اتمسك أشرف، ظبطوه بخمسين جرام كوكايينا واتحكم عليه بسنة، وبعديه اتمسك كريم، وبقيت أنا وأحمد عمارة نتاجر ف المخدرات ومعانا حازم ومحمد الصغير ولطفي شغالين في تثبيت الجيي، وجالنا محمد الزعيم، كان مسجون ف قضية سرقة وخذت شهر، وقعد معانا ف بيت العز يومين وخذ شقة ف العمارة 42 واشتغل معانا، ياخذ منا سلعة ويوزعها ف العمارة، وف يوم اتخانق مع جماعة هناك وضربوه فغز واحد فيهم بالموس في قلبه مات، وهو هرب واختفى. والشرطة كانت عارفة إنه قريبي وهجمت علينا ف بيت العز وخذوني أنا وأحمد عمارة، وحجزونا يومين وخرجونا، وتاني ليلة وأنا قاعد ع المكينة ف البار اتصل بي أحمد عمارة وقال لي تعالي دلوقت، فيه إيه يا ابني قال لي قلت لك تعالي، ورحتم لقيت الزعيم قاعد ع الصندوق اللي كنت قاعد عليه لما جالي صاحب البيت أول مرة، كان متعور ف وشه وإيده، وخذته بسرعة ونزلته المعمل، الشرطة جت مرة واتتين وم دخولش المعمل لأنك لما تبص فيه م الطاقة اللي بنزل منها م تلاقيش غير الزبالة والريحة معفنة، والزعيم قعد فيه خمس ايام، والشرطة كانت مراقباني على طول، والموضوع اتعرف حتى ف مصر عرفوا إن الزعيم قتل واحد، وكان ليا صاحب من تطون وساكن في فيماغوسطا ومتبنايه دكتوراة فرنسية عندها ثلاث عيادات، واحدة ف إيطاليا وواحدة ف فرنسا وواحدة ف سويسرا، وكان طول الشهر بيلف معاها عليهم في عربيتها، واتفقت معاها يهرب الزعيم لفرنسا، ومن هناك سافر بلجيكا وخلع على مصر.

وكان فيه ظابط مسميينه أالموسلو من كتر العضلات اللي ف جسمه ومراقبني ويومياً على الله يسألني "فين الزعيم باقو؟"، واقول له ف مصر، وم يصدقنيش ويقول لي لا إنت مخبيه لحد م زهقت وقلت له إستنتي، وطلبت الزعيم في مصر واتكلمت معاها إيطالي وقلت له أالموسلو واقف قدامي ومش مصدق إنك في مصر، وفتحت الاسبيكر وإديته التليفون، وقال تشاو وقال الزعيم إزيك يا موسلو يا ابن الشرموطة، قال له الزعيم؟ قال له أيوه أنا الزعيم وإن كنت راجل تعالي مصر وإحنا البدو ندبك ف الجبل، وإداني التليفون وسألني مين اللي عداه قلت له بو معرفش، وعود عني بس حسيت إنه مش هيسيبني، هيسيبه من قصة الزعيم ولازم دا يخش السجن، ولقيتهم مراقبني وأنا بالحلم الزباين، وزادت وغطت المصيبة اللي عملها حازم ولطفي ومحمد الصغير.

الثلاثة كانوا شغالين في تثبيت الجيي، بيعتوا محمد الصغير للواحد منهم وعلى م بيداً الشلط يثبتوه وينفضوه، ومحمد كان حليوة يركب ويتركب، هو كان مفهمنا إنه بيركب، ومرة بنثبت واحد صدفه لقينا محمد قالع سرواله ونايم تحتيه، واختفى شوية وجالي ف بيت العز مدلدل ودانه وقال لي أنا عارف إنك هتمشيني، فقلت له لا يا ابني دي طيظك وانت حر فيها.

المهم الثلاثة اتفقوا على تثبيت واحد كان محمد بينام معاها في بيته ف عمارة فخمة جداً في لوريتو، محمد راح له زي م بيروح له عادي وخلص معاها وساب محفظته ع السرير اللي ناموا عليه ونزل، وهما مستنيين تحت، وشوية واتصل بيه وقال له نسيت المحفظة، ففتح له باب العمارة ودخل ودخل حازم ولطفي معاها، ودخلوا ع الراجل وثبتوه م انتبش، كان جامد وشجاع على غير عادة الناس دول وعصلج معاها، وهابروا مع بعض شوية لحد م ضربه واحد فيهم بمقص كبير ف جنبه ووقع، وسرقوا منه لاب توب وجزمتين م اللي الواحدة بسبع تلاف يورو وساعتين وموبايل وألفين يورو، ورجعوا بيت العز ودسوا اللاب توب ف الجنيينة وأنا م اعرفش أي حاجة.

وتاني يوم خد حازم ومحمد اللاب توب وطلعو يبيعوه في كارلو فاريني، واتمسكوا هناك، على م
الراجل اللي كان هيشتره فتحه طبت عليهم الشرطة، واتضح إن اللاب توب بتاع مين؟ بتاع
قاضي، لأ ومش أي قاضي دا رئيس القضاة في ميلانو، وعليه النسخة الأصلية لقضية توترينو
"توتوه" زعيم المافيا الإيطالية، والمخابرات قالبية الدنيا.
وفجأة، واحنا قاعدين نضرب سيجارتين حشيش في صالة بيت العز، دخل علينا أكثر من ستين
واحد لابسين أسود ومقنعين ومسلحين برشاشات سودا صغيرة وحاوطونا واثبت مكانك وشدوا
الأجزاء، وبعدين دخل واحد لابس بدلة وكرافتة وقال لي اسمع يا باقو إحنا مش شرطة ولا عايزين
المخدرات اللي قدامك دي، إحنا عايزين لطفي، ولطفي ساعتها قاعد جنبنا عدل ف الدور الثاني ف
البرج اللي بين بيت العز والشركة وكان سلمه مكسور بنطلع له بحبل بعقد، وتشد الحبل وراك.
وخدوني معاهم، وركبت مع أبو كرافتة ف عربية ملاكي، ومشيت ورانا عربية فيها أربعة، والستين
المقنعين اختفوا، ورحنا لفيلا شيك في حي راقبي وناس كلها ملكي، وقعدنا ف مكتب، وحكى لي
القصة، وقال لي الطعنة اللي خدها القاضي وصلت غشاء القلب وهو ف المستشفى بين الحياة
والموت، وإنتم لو عايز تعيش في إيطاليا أو تعيش أساساً لازم تتعاون معانا وتسلمنا لطفي،
والعربية اللي جابتك هترجعك لحد البيت، وحلفت بحياة أمي إنني م اعرفش أي حاجة وإنني هاسلمه
على م أشوفه. ورجعت ولقيت لطفي قاعد مع العيال ف الصالة وقلت له يا ابن ميتين الكلب إنتو
قتلتوا بلوة مسيحية، ومتصورين وإنتو داخلين ووإنتو طالعين وخذ حاجتك وامشي من إيطاليا كلها،
وإلي م طلع البرج يجيب حاجته هجم علينا الستين المقنعين. كانوا مدسوسين ف الغابة ولمحوا البرج
نور ودخلوا لقطوه وضربوه وشالوه اتنين من إيديه ورجليه ومطوحوه ورموه م الدور الثاني، وعمل زف
ع الأرض وقال آآآه وقالوا له لا م تموتش دلوقت دا إنت هيطلع ميتين أمك إنت عارف إنت ضربت
مين يا مصري يا قدر؟ وخدوه، وهما طالعين بص لي أبو كرافتة وقال لي "خليك كويس يا باقو".

الكورولا الزرقاء

نزلت سبها على ابن خالة نصاحة، وكان من النوع المحب لتصليح حاجاته وحاجات الناس دون أي
طلب أو مهارة من أي نوع، بل عادة ما يدمر ما يصلحه ويفككه عشريين حته، وفي ليبيا خطر عليه
أن يشتغل في سمكرة وزواق السيارات على اعتبار إن المسألة قريبة من مهاراته في الفك والتركيب،
ولما نزلت عليه في الورشة كان شغال مساعد لسمكريها وزواقها الأصلي ومؤجرها الماهر جداً
الأسطى هادي التونسي، وكان في الورشة مطعم، اللي اشتغلت فيه، مطعم صغير زبائنه بعض
صناعية الحي الصناعي، ولا يحتمل إلا عامل واحد يطبخ ويقدم وينظف، وأنا تحمست كالعادة
وركزت عليه كما أركز بعبط في الشيء أو المشروع أو الإنسان نفسه وأستخمه ثم أكتشفه في

النهاية، لا أكتشفه وإنما يفتر حماسي له وأكتشف إنني خُذعت وأحزن. صديقي وقريني الأقرب يقول عن نفسه ووصفاً لتجربته إنه كما لو أنه كان يردم في البحر المتوسط، كان يحفر حفرة عميقة ويتركها، لا يتركها فقط بل ينساها ليبدأ في حفر غيرها، سيزيف يناسبنا والله، سيزيف يصعد ونحن نحفر، وأنا ورثت عنه هذه الحفرة.

وصار المطعم الأهم والأزحم في الحي الصناعي، وكنت أطبخ أصناف بسيطة؛ بيض أوملت في الفطار وبطاطس باللحمة في الغداء، ولكن بكثير من الإضافات والطرق المبتكرة، وكنت أحس أن أغلب زبائني لم يروا أكلي في أي مكان، وكانوا ينكبون عليه وكأنهم ساقطون من جبل، والحقيقة أن ما كان يغريهم أكثر الرخص، كنا أرخص مطعم في سبها بدون منازع، وهادي كان يمده بكل ما يحتاجه، وكان يقبضني دوناً عن كل الورشة بالدولار. وفي يوم تعارك ابن خالتي مع هادي أو عويدات مش فاكر وساب الورشة، وأصبح لزاماً علي قلبياً أو قرائبياً إنني أسيب المطعم والورشة عشان خاطر أمه "اللي هي خالتي"، ولما اتأخرت في التفكير في هذا الأمر، أرسل إلي ما يعني أنه "عيب تقعد في الورشة بعد ما سابها ابن عمك"، وجالي عويدات صاحب الورشة الذي كان دائماً يتعارك معي وطنياً لو صح الوصف وقال: "إنت جي تخدم في ليبيا وترد على هلك مش جي اتصبي مع ضنا عمك"، لكن أنا مشيت مع ضنا عمي، وانتقلنا إلى ورشة في نفس الحي الصناعي اتضح أنها مركز لأخطر أصناف المجرمين في عموم سبها وربما ليبيا كلها. وفي يوم هجم خصوم لهم على الورشة في الليل سكرانين طينة، والغرض من الهجوم ليس النهب أو السرقة كما العادة ولكن للتأديب، يعني سحل كل الموجودين فيها وضربهم حتى الموت، وابن خالتي الناصحة كان في الورشة لوحده.

لي خالتي واحدة ناصحة وشريرة وواحدة معتزة وطيبة، وأكبرهم أمي الساذجة، مكسوف أقول أمي المعبوبة كما تنقل أمي عن أختها الناصحة الناجحة الشريرة. وابن خالتي الناصحة، هو شخصياً ليس ناصحاً، وخالتي الناصحة نفسها ضجت من غباؤه وقلة حيلته وفشله في الحياة.

وقام مدهوش على كركبتهم في العريبات، ولم يكن في نيته أبداً مقاومتهم أو منعهم من السرقة، ولكنهم سكارى وفهموا دهشته وصراخه وتخطبه فيهم على أنه مقاومة وسلوه، ويقال أيضاً إنه كان عادي وإنهم من فرط الشراب ظنوا أنه يقاومهم وضربوه حتى أشرف على الموت.

وفي هذه الورشة قرر ابن خالتي يشتغل سمكري وزواق عربيات رسمي وأنا مساعده، "واشتغلنا ثلاث عربيات"، وبالمواصفات الليبية كان عمله مقبولاً، أو على الأقل لم يرق أو قل لم ينحدر إلى درجة الانتباه إلى أنه حديث في المهنة، وما يسر له الأمر أن زبائنه حديثين في عالم السيارات، وأغلبهم انتقل من على ظهر الجمل إلى ظهر السيارة حالاً، ولا يفرق بين زيت السيارة وزيت الطعام، وهذا ما أغرى ابن خالتي وأغواه وأوقعه في الخطأ، وقرر أن يتلاعب بالمواد، واستبدل دهان السيارات الغالي بدهان الأبواب الرخيص، واستعان بالفهولة المصرية إياها وقال لك: "أهو كله دهان ومش هياخدوا بالهم". وكانت أول تجاربه في خطة التوفير في المواد - سيارة تويتا كورولا، أول ما نزلت الكورولا اليابانية في العالم، ونقلت تاريخ صناعة السيارات مبنى ومعنى، شكل وموتور ورفاهية وكل شيء، وكان صاحبها شاب ليبي معمم، ليس عمه الشيخ لكن عمه الشاب "اللي شايف نفسه".

واشتغلنا في الكورولا أسبوع، سمكرة وكحت وحك وأنا بين يديه بالجردل والفوطة، ورش الكورولا الزرقاء الميتالك اللامع بدهان ببيان أخضر لامع، ولا أعرف لماذا أخضر وقد كان بالإمكان شراء

أزرق بنفس السعرة، ونزل صاحبها من تويوتا لاندكروزر كرسيتها مركونة عليه بندقية آلي، وقرب من الكورولا، وجر ضفره الطويل على الكبوت فعمل أخدود في قلب دهان البيبان، وقال بفرع حقيقي ووعيد جبار "وكما ان دهان بيبان موصخ، نا هنقتلكم بس عشان الاخضر هضا" وارتد للاندكروزر "توا نقتلكم يا خنابين"، وسحب الآلي من التويوتا وسحب الأجزاء، وم كانش فيه حل إلا إني أبوس راسه، أنا قلت إن الواحد يخاف من البلطجي حتى الرعب ولكن م يخافش من السلاح، ومرات كثيرة وضع السلاح في رأسي ولم أشعر بأي خوف بل بابتسامة بلهاء، وانكبت على رأسه حتى احتك سلاحه بصدري، وقلت برجاء حقيقي ومسكنة متناهية: "أرجوك، وحياة النبي هنعملها تاني"، قال "باهي باهي" وتراجع، "توا انجيكم بعد أسبوع".

وجبنا متخصصين في الزواق على حسابنا وسلمناها له سيارة تويوتا كورولا ميتالك لامع بعد أسبوع.

فرنسا

ولقيت نفسي كده كده هاتمسك، الشرطة هتمسكني، الزعيم هرب على مصر، وحازم ولطفي ومحمد الصغير اتحكم عليهم باحد اشر سنة ونص، وبقيتش إلا أنا وأحمد عمارة، واديته الشريحة اللي عليها الزباين ورحت لصاحبي اللي عدى الزعيم فرنسا وركبت معاه هو وأمه ف عربيتهم المفيمة وقلبت على فرنسا، هو وأمه قدام وأنا ورا، وكان معايا ييجي خمس تلاف يورو، ونزلت على واحد من عندنا م البلاد كان قاعد في باريس، وسكني ف منطقة الكاتشو مان وسط الأفارقة، والعرب، وتالت يوم باتمشنى ف الشارع أتفرج ع الدنيا لقيت واحد تونسي بيحمل تلاجة ف عربية صندوق، وساعدته واتعرفنا على بعض وسألني خدام؟ وقلت له لأ أنا لسه جي وم اشتغلتنش، قال تخدم معايا؟ قلت له يا ريت بتشتغل ف إيه؟ قال لي ف الجبس المعلق، واتفقنا يتصل بي الصبح، ونسيت الموضوع على اعتبار إنه زي بتوع إيطاليا ألف واحد قال لي هاشغلك وم يشغلنيش، وم سجلتنش رقم تليفونه وخذت لفتي ورجعت وسهرت أتفرج على أفلام سكس ونمت، لكن ع الساعة ستة الصبح تليفوني اتركب رن فصحيت لقيته بيقول لي إيش بيك م تببش تخدم انت؟ قلته لا والنبي، قال لي باهي تعال نا واقف ف الكاتشو مان توا. ولبست هدومي ونزلت ولقيت شغله سهل جداً، فُرم جبس جاهدة بركبها ع الأسقف والحيطان، وضربت معاه عشر شهر مهفتش منهم يوم واحد.

وزرت برج إيغل وشارع بيجال اللي قال عليه الشيخ كشك إنه قطعة من جهنم، ولقيته شارع لعرض الرجال والنسوان بمنتهى الوضوح في الفاترينات، وطبعاً كل ما يخصي الموضوع ده من الأدوية والمنشطات والدهانات والأطعمة والملابس والأشكال الشتى. وبقيت ألف ف الجنانين لحد م لقيت جماعة جزائريين بيبيعوا حشيش واتعاملت معاهم، وكانت أحسن سيجارة حشيش أشربها فيك يا أوروبا، وبقينا أصحاب، أزورهم ويزوروني ونسهر ف البارات والديسكوهات كل ليلة حد، واتصلحت معايا وبعث لأهلي فلوس لأول وآخر مرة، واتعرفت على أخت التونسي اللي شغال معاه، وكانت متجوزة جزائري بهيم بيركبها من ورا، وليه كيف يضربها على راسها بالجزمة، وخرجنا مع بعض ف الجنانين وخذتني السينما وكانت أول وآخر سينما أدخلها ف أوروبا، وكانت بتجيلي الشقة كل يوم حد نطبخ ونقضي اليوم مع بعض.

وف يوم جالي حاتم المراز هربان من إيطاليا، وقعد ست شهور يدور على شغل وم لقيش، وضنكت معاه وقال لي عايز أرجع إيطاليا وم معييش أجرة التذكرة، وكنت لسه قابض، وخذته محطة القطر، وبدل م اطلب م الست بتاع التذاكر تذكرة واحدة قلت لها اتنين، وعلى م خدت بالي كانت قطعتهم، وم اعرفش إزاي قررت ف اللحظة دي أرجع إيطاليا، كنت بهدومي اللي عليا بس، ومعايا حطة حشيش ملكمة تجيلها ربع قرش، وشلت شنطة حاتم ووقفنا ف الطابور اللي هيركب القطر، وقرب مني كلب صغير واييض وشعره منفوش وبقي يشمشم ف الجيب اللي فيه حطة الحشيش فعملت نفسي بالعب معاه وزحته أكثر من مرة وم فيش فايدة، ولقيت واحد بيخبط على كتفي من ورا، اتلفت طلّع لي كارنيه بوليس وقال لي لو سمحت الشطنة، وميل عليها وفتحها وبدأ يفتشها فضربت إيدي ف جيبي وطلّعت حطة الحشيش وحطيتها ف بقي والكلب باصص لي وحسيت عنيه بتطق شرار، والراجل فتش الشنطة وقال لي شكرا ومشني وفضل الكلب باصص لي مش عايز يتحتج، فرجع عليه وطلع قطنه من جيبيه ونفضها أربع مرات على مناخيره وهز دماغه ومشني وراه وهو بيبيص لي. وركبنا القطر، وم عرفش ليه على م قعدنا قلت لحاتم أنا رايح إيطاليا أتسجن، وع الحدود الإيطالية الفرنسية طلعت الشرطة الإيطالية ونزلونا وسلمونا للشرطة الفرنسية، لكن مش السجن ده، دول بالعكس سألونا الفرنسيين عايزين تروحو إيطاليا واللا تقعدوا ف فرنسا قلنا إيطاليا فركبونا القطر اللي بعديه.

عملية رمسيس

أبو الهلب مصري حاصل على بطاقة الصاد شين، وكان ضمن خلية الصاد شين التي جندها العقيد لتنفيذ تفجيرات وإحداث اضطرابات في مصر أثناء صراعه مع السادات، وكان مكلف تحديداً بزرع قنابل في قطار الصعيد، ويقال ميدان رمسيس ويقال حتى المترو في بداياته، المهم إن المخابرت المصرية اطلعت بل الشعب المصري نفسه اطلع على تفاصيل العملية وأسماء منفذيها قبل أن يتحركوا من مكنهم الأصلي في سبها، وهكذا أصبح في مصر أبو الهلب خائناً وفي ليبيا ورقة أو عنصراً مكشوقاً، وهكذا فر على سبها، وكانت أساساً مكمناً لكل مجرمي المنطقة. وجرجارش أصلاً من عرب جنبنا في الفيوم، وكانوا مشهورين بأنهم لما يتعاركوا بيقلعوا ملط، وكانت الدنيا فقر وكان الناس هاملين في الأحراش ميتين من الجوع مش لاقين، وهم بالذات كانوا بيسترزقوا من تثبيت الجماعة اللي بيسلخوا الحيوانات النافقة في حمرائتهم، "ينتظروا الواحد حتى يسلخ البهيمة الميتة ويثبته، وي الجلد ي يراضيه" وغالباً كان يراضيه، والشاعر قال في أبو جرجارش "وخريو الجرو السراقي ما يسوى تلتين سجارة" وجرجارش فر من هذا الشظف إلى ليبيا في السبعينات وعرف على نفسه وحصل على بطاقة صاد شين، ومثل كل أو الغالبية العظمى من الصاد شين انضم إلى الجيش الليبي، وكان ضمن الكتيبة التي أرسلها القذافي إلى إيطاليا للتدرب على حرب الشوارع، ثم كلفها بالمهام الثورية خارج ليبيا،

وكان مهمتها مساندة الأنظمة والجماعات التي يساندها العقيد في مختلف أنحاء العالم، وحاربت الأنظمة والجماعات التي ساندها القذافي في تشاد والنيجر والكونغو والفلبين، وكان المفترض أن تكون آخر عملياتها في أوغندا لمساندة الرئيس الأوغندي في حربه على الثائرين عليه، ولكن بينما كانت طائرة جرجارش وكتيبته محلقين في السماء نجح الثوار وأطيح بالرئيس الأوغندي عيدي أمين وهرب إلى كينيا ثم السعودية، وهبط جنود الحرية الجماهيرية في السودان، من يومها بدأ جرجارش خطته للفكك من الكتيبة والجيش الليبي عموماً، وساق الجنان حتى خرج طبي وعرف باسم جرجارش.

ولكن أكرمهم على الإطلاق محمد خويطر، شاب قذافي عايد من تونس ومن فرع الزعيم ومستبيح، ومفیش ظابط أو مسئول في سبها م يتربش منه، وعایش على السطو، ليس السرقة وإنما السطو المسلح، وهي مهنة عربية قديمة كانت تسمى الغزوة، وبلغ به الجنان إنه خطف زوجة طبيب يوغسلافي كان يعمل بمستشفى سبها الجامعي وانقلبت الدنيا، وجاء العقيد بنفسه وأقام بها أسبوعاً حتى ضبط أمنها.. ولكن هيهات.

وأبو عبد الله سألني لك عليه لوحده، وهو عموماً لم يسكن في ورشة أبو الهلب، هو انبثق لي كده في مصنع البلوك.

سان فيكتوريا

ورجعت ميلانو، وفي الأول رحلت البلتس 42 عند طارق أبو الذهب، مصري فيومي ف الخمسينات من عمره وجي إيطاليا من يبجي ثلاثين سنة، وكان مقاول كبير، وم تعرفش بنى عمارة ووقعت أو حصل له إيه قعده ع الحديد؟ وساب دقنه واتدروش وقعد يسكر قدام الكستيلو ليل نهار ويعمل مجنون ع الإيطاليين، وأنا عرفته هناك، وخذته معايا بيت العز، وقلت للجماعة إنه شيخ عرب برعصي وهو م كانش برعصي ولا م العرب أساساً.

قعدت معاه يومين ورحت بيت العز وم لقتش فيه غير كريم، كان عنده حوالي ثلاثين سنة ومن المنصورة، وبيتكلم إيطالي أحسن م العربي لأنه جه وهو عنده خمستاشر سنة، وادوله إقامة عشان تحت السن، وبالإقامة اشتغل سواق في شركة كبيرة، ومرة سكر واتخانق مع البوليس وضرب ظابط بقرازة البيرة ف دماغه، وخذوا منه ورق الإقامة والرخصة وسابوه للشوارع لحد م لقيته ف العربية، وشغلته طباح لبيت العز وليه نصيب زي أي واحد فينا، ولما اتسجنت المرة الأولانية شغلّه أشرف أبو ناعسة ف المخدرات، وباللغة واللباقة نجح وعمل زباين كثير، وكان شغال زي النار على رقمين، رقمه والرقم اللي سبته لأحمد عمارة، وبيدخل له م يقلش عن خمس تلاف يورو ف اليوم الواحد، وإداني شريحتي واشتغلنا مع بعض، ندفع تمن السلعة والمكسب بالنص.

وكنا بنجيب السلعة م الألبانيز، وفتحت معانا، وخلينا مخزن بيت العز للتقيل، وخذنا شقتين ف عمارة واحدة في فيماغوسطا، اللي ف الدور الأول للتقطيع والتسليم واللي ف الدور الثالث لنا، وبدأنا ناخذ م الألبانيز بالتلات كراتين، الكرتونة فيها خمسة وعشرين كيلو هيرويينا غير الكوكايينا، واشتغلنا ف الاتنين، وخفيينا القطاعي أبو جرام واتنين وبقينا نوزع بالكيلو، وكنا بنوفر خمس تلاف صافي ف اليوم غير الأكل والشرب والمكن ليلاتي على الله، وكنا نتلم وآخر الأسبوع يجيب صاحبته الإيطالية وأجيب تكا صاحبتي الإيطالية ونطلع ف عربيتها على أي دستاتيكا ف الدنيا، وكنا عادة

بنروح ملهى ليلي فيه صالة قمار كبيرة على طريق برجامو اللي بيوصل فرنسا، نشرب ونرقص ونلعب قمار رولي باللي معانا، ونرجع الصبح سكرانين طينة وممعناش ولا قرش، ونعيد الكرة من جديد، وعشنا حياتنا على كده، شُفنا جمال ومتع الحياة وسهرنا مع شباب طليان وأمريكان وأسبان وم الدنيا كلها.

وفجأة اتخانقنا، كنا ف البار وكنت سكران وقال لي روح هات عشرة جرام م المعمل وقلت له لأ أنا هانام روح إنت، وسبته ف البار وطلعت وهو اتنرفز وكسر القزازة إللي ف إيده وبرطم بالكلام، ولما وصلت البيت فُكّرت ولقيت عنده حق، الشغل ف النهاية لنا إحنا الاتنين، ورحت أجيب العشرة جرام م المعمل، ويادوب طلعت السلعة وبكسر فيها طب عليا بيلهث واحد صاحبي كان معانا ف البار وإحنا بنتخانق وقال لي "لم لم كريم بلُغ عنك". لميت السلعة ورفدتها وطلعت من بيت العز ونطّيت من ع السور ومشيت ع السكة الحديد، ويادوب طلعت منه م الفتحة اللي بتنزل ع الطريق ولقيت الشرطة ف وشي و"أقف مكانك"، وجي منين قلت لهم اتزنقت وطلعت أتسير، قالوا لي تعرف صاحب رقم التليفون ده بصيت لقيته رقمي وقلت لهم لأ انا ممعيش تليفون أساسا، وطلبوه ورن ف البيت وسابوني.

ورحت البيت نمت عادي كأن الشرطة موقفتنيش، والصبح قابلت كريم ف البار وكان معاه نص كيلو هيرويينا وإداني عشرة جرام وقال لي فيه زبون جي الحمه بيهم والحقني ع المعمل أكون كسرت النص كيلو ونمشي الزباين.

يادوب مشي جه الزبون ولحمته وطرت وراه، ونزلت المعمل لقيته قاعد ولسه م طلعت النص كيلو، صرخت فيه أقف يا ابن المتناكة قال لي فيه إيه يا أبو جليل انت اتجننت قلت له عايز تحبسني يا ابن اللبوة عايز تحبسني يا ابن الشرموطة؟ وشديت السكينة وطلّع اللي معاك يلا، وخذت منه خمس تلاف يورو والنص كيلو والتليفون وقلت له تطلع من هنا وإن شُفت وشك ف الزونة هادبحك. واشتغلت مع نفسي فترة، وجه أحمد عمارة وشغلته معايا، وبالظبط عشرين يوم وسهرنا أنا وهو وأبو الذهب في بار قدام البلتس 42 (شارع فيابلني الواصل بين بورتا رومانة وبورتا جنوا)، وسكرنا طينة، وخرجت أنا وعمارة نشد كوكايينا عشان نفوق، وطلع معانا أبو الذهب ووقف قدام البار، ويادوب سبناه ومشينا مفيش عشرة متر سمعناه بيصرخ يا ابو جليللل، اتلفت لقيت واحد تونسي شاله لفوق ورزعه ع الأرض وبرك فوقيه، ورجعنا ولقطنا التونسي وهريناه بالابكاس وأبو الذهب قام وغزّه بمطوة وجري، وهو بيجري لمحت موبايل وقع منه واتزلق تحت عربية، وقلت لأحمد عمارة هاته، قال لي دا سوني إريكسون م القديم وميجبش عشرة يورو قلت له هاته، وجابه وحشرته ف جيبي، ومشينا جنب جردينة هويدي ولقينا عربية الشرطة طالعة منها، كانت الساعة اتنين ونص، ومساء الخير مساء الخير، رايعين فين قلنا مروحين، ساكنين فين قلنا البلتس رقم تمنية، طب ممكن تطلّعوا اللي معاكم، وطلعت كل اللي معايا ومن ضمنه الموبايل بتاع التونسي، وعلى م شافه اتكلم ف الجهاز اللي معاه وقال ترفاتو يعني لقينا، ولقينا عربية من هنا وعربية من هنا وعربية من هنا، وخذونا ع القسم، التونسي بلُغ اننا تروفتو سرقة بالإكراه وخذنا منه الموبايل وألفين يورو وسلسلة ذهب، وتاني يوم رحلونا على سان فيكتوريا.

أول م دخلت قال لك أووو تاني يا دياب، وقعدونا ف شلّة مع اتنين مصريين واتنين مغاربة، يومين تلاثة واتخانقنا مع واحد م المغاربة وقلنا باب الزنانة وهلكناه، ونقلوه المستشفى، والسجن كله عرف، وشوية ونادوا ع اللي نازلين للفلماريا يعني الدكتورة، ونادونا معاهم وإحنا مش عيانين وم طلبناش ننزل الفلماريا، وقلت لأحمد أكيد عاملين لنا مقلب، ولقطت موسين حلاقة ووستدهم في

بوقى، ودخلوا المساجين للدكتورة ونزلونا أنا وأحمد عمارة للروتندا، السجن قديم، وف قلبه دايرة كبيرة فيها مكتب البرجاديير بتاع السجن على الجنب وخمس ابواب كل باب بيفتح على عنبر سبع ادوار، ومن فوق قبة كبيرة على شكل نجمة خماسية ومنسوب عليها صليب ضخم، وعلى م وصلنا نص الدايرة طلع م البيبان خمستاشر واحد الواحد قدي مرتين، ولبسين إسود ف إسود ومش شايف إلا عنين، جونتات وأقنعة سودا ومعاهم عصي جلد، واتقفلت البيبان، طاج طرباج طاج طراج وبقى الحوش زنزانة واسعة، وطلع البرجاديير قدام مكتبه وقال لي أنا هاشوف دلوقت الفرعوني اللي بيقلوا عليه، إنت عامل نفسك فرعوني وبتضرب المغربي وإحنا معندناش ضرب واللي يضرب يتضرب، قلت له أدسو، جوردر فرعوني، دلوقت هتشوف الفرعوني، وجيت قالع التي شرت اللي عليا ورميته على طول إيدي وبقيت بالشورت، وترك (بكسر الراء وتسكين الكاف) طلعت الموسين وجيت شبيط بالموس من كتفي لجنبي الشمال وشبيط بالموس من كتفي لجنبي اليمين وغطاني الدم، والمأمور صرخ كفاية كفاالية يا مجنون، وقلت له أوريك تاني البافو الفرعوني، وشبيط بالموس ف دماغى، قال خلاص خلاص خلاص واتفلت للتيران الخمستاشر المقنعين وصرخ فيهم "امشوا من هنا"، واتلغمطت الدايرة بدمي، واتحايلوا عليا كثير لما رميت الموسين ورحت للدكتورة وخطبتني، وخذوني يحبسوني في سجن انفرادي ورفضت وجيت شايل الشاش على صدري وراسي وقطعت الغرز، قالوا بس بس اللي إنت عايزه هنعملهوك، ورجعوني للدكتورة خطبتني تاني، وودوني للمديرة وعلى م دخلت عليها قالت لي تاني يا دياب؟ قلت لها أنا عايز أرجع مكاني ورجعتني، وأحمد عمارة حبسوه انفرادي، وشوية وطلبت م المدير يرجعه ورجعه.

ونفس الحوار اللي عملته ف الحبسة الأولانية عملته أنا وأحمد عمارة، اتفقت معاه إننا م نعرفش بعض، وإن أنا جيت البار ولقيتك قاعد مع صاحبتك الألبانيزية، وأنا اتخانقت مع التونسي ومسكنا ف بعض على فلوس ليا عنده وطالبته بيها أكثر من مرة وم دانيش، فصاحبتك قالت لك هما دول العرب فقامت حجزتنا، وخذت لي منه التليفون برضاه عشان أضمن فلوسي، واسألوا الألبانيزية وهتقول لكم إن دا اللي حصل، فسألنا القاضي والتعويرة اللي ف وشه؟ فاتكبنا، م كتأش نعرف إن أبو الذهب غز التونسي بالموس، وتأجلت الجلسة ثلاث شهور ورجعنا سان فيكتوريا. وجالنا الخبر إن كريم شغال زي النار، وإنه بلغ في أشرف أبو ناعسة ودخله السجن تاني، فمديت راسي من شبك الزنزانة وندهت بلعوا صوتي يا كريبيميمم، لأن فيه عادة أو مقولة ف السجن بتقول إنك لو ندهت على واحد وانت ف السجن بيجيلك.. مش زاير ولكن مسجون، وبالظبط شهر على ندهتي على كريم كنت نايم ف الضهر لقيت باب الزنزانة اتفتح وطاج جه مقفول، وقمت لقيته كريم وبيرتعش قلت له أهلا، قال لي والله م بلغت عنك، وخذ تمن شهور. وف يوم قال لي واحد مسجون م اللي شغالين ف السجن فيه واحد فلسطيني اسمه باسم خليل تحت ف الدور الأول بيسأل عليك، وعرفت إنه فتحي الاعرج، كان معرف نفسه فلسطيني ومصمم على فلسطيني، ونزلت وقعدت معاه شوية ورحت للمديرة واتحايلت عليها لحد م وافقت تنقله ف زنزانتنا..

وجه ميعاد الجلسة، وصممت على إننا م ضربناش التونسي وإني م اعرفش أحمد عمارة، وقلت للقاضية دا تاجر مخدرات وهو اللي عور نفسه عشان يورطنا، وسألتني إيه اللي يثبت كلامك؟ قلت لها أقابله وأنا هاثبت لكم إنني ليا عنده فلوس وإنني مش أنا اللي ضربته، على أمل يطلع هربان زي اللي قبله، وتأجلت ثلاث شهور، وم جاش التونسي وخذنا براءة. وخرجنا واشتغلنا مع الألبانيز، وأربع شهور واتمسك أحمد عمارة، وقبلها بشهرين طلع كريم، كنت

عملت معاه الصح ف السجن، وتأسف لي تاني وقال لي إنه كان سكران ومش عارف بيعمل إيه، واشتغلنا مع بعض بس بقيت محرص منه، وضربنا مع بعض ثلاث سنين، ناخذ من اتنين ألبانيز وندي المغاربة والتوانسة والمصريين ف ميلانو كلها، وبدأ يجيلنا مغاربة من نابولي وباليرمو عايزين بالخمس كراتين، ولما طلبنا من الاتنين الألبانيز تزويد الحصة نقونا لموليهم الكبار في بار خارج ميلانو بتاع واحد مغربي، ولقينا قدامه أربع عربيات واحدة فيراري وواحدة بي إم إكس ستة واتنين هامر وعلى م شافوهم الألبانيز قالوا لنا الجماعة هنا، ودخلنا، واتفرج بقى ع الناس اللي قاعدة. قاعدين في ركن وملفوفين بستارة، وعليهم حراس، وقاعدين يتكيفون ومعاهم كوم نساوين مغاربة، وانتظرنا إحنا بره ودخل الألبانيز وغاب ربع ساعة وطلع وخدونا، دخلنا لقينا ناس كبار، فوق الستين سنة، ومن منظرهم تخاف، وإنتو بقى المصريين؟ أيوه، ومين صدام المصري؟ قلت أنا، منين؟ قلت من أسويط، مسيحي؟ قال عايزين قد إيه قلت خمسة وعشرين كرتونة، هتقدروا تسدوا تمنها؟ قلت له ولو عايز فلوس زيادة نديك بس بعد م نطلعها، قال لي ماشي. وهو بيتكلم معايا حسيت إنه شايف نفسه وبيتنعر قلت له اسمع أنا م باخفش من حد، وإنت ملكش عندي حاجة وأنا مليش عندك حاجة، وأنا راجل زيي زيك، ولما تكلمني تكلمني باحترام، إنت معاك فلوس ووصلت، وأنا واثق إنني هاوصل بمجهودي للي انت فيه وأعديك كمان، فاتأخر شوية وقال لي برفو إنت عندك ثقة جامدة وهتوصل، وقال انتظروني نص ساعة بره وتعالوا، وف النص ساعة كان فيه عربية كاميون وقفت قدام البار، فيها الخمسة وعشرين كرتونة، وخدناها وطلعناتها ف الشقة، ومفيش شهر واتباع وسددنا لهم ثلاثة مليون وسبعميت ألف، وخدنا خمسة وعشرين تاني، قال خدوا خمسين قلت له لأ، وهلكناها على السهر والقمار والرولي، كنا بنصرف على أساس المكسب، ومرة كريم يجيب كرتونة ومرة أنا أجيب كرتونة لحد م دخلنا المخزن لقيت كرتونتين بس ومش معانا إلا ميتين ألف، اتذهلنا، دا م يعنیش إلا الموت، الألبانيز م بيهرجوش في الحكاية دي، وأنا بيدي مسلّم لهم المغربي، وم كانش فيه حل إلا الهرب، قلت لكريم إنني هاسافر فرنسا أجيب فلوس من قرابيبي هناك.. وطرت على مصر.

صدر للكاتب:

- أسراب النمل، قصص، الثقافة الجماهيرية 1997 - جائزة القصة القصيرة في مصر في نفس العام.
- أشياء مطوية بعناية فائقة، قصص، هيئة الكتاب 2000 - جائزة الإبداع العربي بالإمارات في نفس العام.
- لصوص متقاعدون، رواية، ميريت 2002 - تُرجمت للإنجليزية والفرنسية والإسبانية.
- القاهرة شوارع وحكايات، خطط، هيئة الكتاب 2007.
- الفاعل، رواية، ميريت 2008 - جائزة نجيب محفوظ 2008 - تُرجمت للإنجليزية.

- القاهرة جوامع وحكايات، خطط، هيئة الكتاب 2010.
- طي الخيام، مختارات قصصية، ميريت 2012.
- فرسان زمان، قصص تاريخية مترجمة للأطفال، تيار 2014.
- نحن ضحاياك، تاريخ إسلامي، بتانة 2017.
- الأيام العظيمة البلهاء، ميريت، 2018.